القلب الذكي، القلب النقي

دراسة في القلب على أساس القرآن و السنة و الأبحاث العلمية الحديثة

المؤلف : د . جوهر مشتاق

ترجمة وإعداد : محمود دعبول

أنصح الشباب بقراءته للاطلاع على معلوماته القيمة والعمل بنصائحه قبل فوات الأوان وانقضاء العمر (المترجم)

جدول المحتويات

تقديم 6
مقدمة 8

الفصل الأول
قلب الإنسان ليس مضخة فحسب 11
قلب الإنسان في ضوء القرآن 12
قلب الإنسان في ضوء السنة النبوية 14
قلب الإنسان وفقاً للفقهاء المسلمين 16
قلب الإنسان في ضوء العلم الحديث 20
بحث في المحادثات ثنائية الاتجاه بين القلب والدماغ 22

الفصل الثاني
قلب الإنسان – عضو فريد في الجسم 23
قلب الإنسان والدوران حول الكعبة (الطواف) 24
قلب الإنسان وصلاة الجماعة 25
قلب الإنسان وذكر الله 30
قلب الإنسان وحدس الرجال والنساء 32
قلب الإنسان وقبول الإسلام 34

الفصل الثالث
قلب الإنسان والعلاقة بين الأم والطفل 37
الذاكرة اللاواعية لضربات قلب الأم لدى الطفل 39
تأثير ضربات قلب الأم على الطفل أثناء الرضاع. 40

الفصل الرابع
تأثير قلب الإنسان على الدماغ والعواطف 43
ذكاء القلب وذكاء الدماغ 44
ماهية الذكاء 46
أربع طرق يتواصل بها القلب مع الدماغ 49
أثر القلب في العواطف 52
طبيعة البشر الثنائية وأهمية القلب 54

الفصل الخامس
أهمية تطهير القلب 56
أمراض القلب العضوية 58
قصة لقمان الحكيم وسيده 61
أول عملية قلب مفتوح – تطهير الملائكة قلب النبي محمد ﷺ 62
قوة القلب الروحية 64
أهمية علم التزكية (التطهير) 67

الفصل السادس
أمراض القلب الروحية وعلاجها 70
حب الدنيا وكراهية الموت (الوهن) 73
الكلام غير الضروري 76
الغيبة 79
فساد القلب بالسمع 81
فرط النظر وغواية وسائل الإعلام 84
الحسد 86
الكبرياء (الكبر) 89
الغضب 92
البخل (الشح) 94
الرياء 95
علاجات عامة لأمراض القلب 97

الفصل السابع
ملاحظات ختامية 102

عن المؤلف

حصل الدكتور جوهر مشتاق على درجة الإجازة في العلوم في التقنية الطبية من كلية يورك (York College) في جامعة مدينة نيويورك (The City University of New York، الولايات المتحدة الأمريكية) حيث كان الطالب المتفوق على خريجي دفعته. وحصل على درجة الدكتوراه في البحوث الطبية من جامعة روتجرز (Rutgers University) في الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً. وتلقى، منذ طفولته، تعليما إسلامياً شاملاً من والده. وفي وقت لاحق، درس العلوم الإسلامية التقليدية لدى عدة معلمين إسلاميين منهم الشيخ عبد الرحمن كشميري (بروكلين، نيويورك)، والشيخ الدكتور إسماعيل محمود الأزهري (نيو جيرسي)، والمفتي عبد الرحمن بن يوسف (المملكة المتحدة) والإمام طارق الشابي التونسي (فلوريدا).

تتميز كتب الدكتور مشتاق بأسلوب فريد يختلف كثيراً عن الكتب الإسلامية الأخرى فهي توفر مجموعة من الأبحاث العلمية من المجلات العلمية الفيزيائية والاجتماعية مع مراجع لشرح حكمة التعاليم الإسلامية. ويعود جزء من سبب هذا النهج الفريد إلى أن الدكتور مشتاق عالم تدرب في مجال البحث العلمي لدى بعض أفضل العلماء الغربيين. وهو مؤلف ساهم في حوالي 50 ورقة بحثية علمية نُشرت في مجلات علمية عالية التأثير يستعرضها الزملاء في هذا المجال. وكثيرا ما يلقي الدكتور مشتاق خطبة الجمعة والمحاضرات في مختلف المساجد والمراكز الإسلامية في الولايات المتحدة. ويساهم بمقالات في مجلة "الجمعة" (باللغة الإنجليزية) ومجلتي "بتول Batool" و"مساق Mesaaq" الشهريتين (باللغة الأردية)، وهو مؤلف الكتب الآتية:

1- "القلب الذكي، القلب النقي: دراسة في القلب على أساس القرآن والسنة والأبحاث العلمية الحديثة" (دار طه للنشر، لندن) (وهو الكتاب المترجم بين أيدينا)

The Intelligent Heart, The Pure Heart: An Insight into the Human Heart based on the Qur'an, Sunna and Modern Science (TaHa Publishers, London)

2- "الإسلام: جماله وحكمته" (منشورات أمانة، ميريلاند، الولايات المتحدة الأمريكية)

Islam: Its Beauty & Wisdom (Amana Publications, Maryland, USA)

3- الموسيقى جعلتني أفعل ذلك: دراسة متعمقة للموسيقى من خلال الإسلام والعلم (دار النشر الإسلامية العالمية، الرياض)

The Music Made Me Do It - An In-Depth Study of Music through Islam and Science (IIPH, Riyadh)

4- "إطلاق اللحية: في ضوء القرآن والسنة والعلوم الحديثة" (دار النشر الإسلامية العالمية، الرياض)

Growing a Beard: In Light of Qur'an, Sunnah and Modern Science (IIPH, Riyadh)

5- "تشجيع الزواج وعدم تشجيع الطلاق: القضية العلمية للزواج في ضوء القرآن والسنة" (المطبعة الحرة)

Encouraging Marriages and Discouraging Divorce - The Scientific Case for Marriage in Light of Quran and Sunnah (Free Press)

تقديم

إن كتاب "قلب الإنسان: مضخة دم أم مصدر للفكر؟ – في ضوء القرآن والسنة والعلوم الحديثة" لجوهر مشتاق هو جهد ينطوي على جرأة من أجل إعطاء مفهوم للكلام الشائع في الكتابات الأدبية كلها تقريباً وفي الألفاظ الشعبية أيضاً عند استخدام القلب على أنه عضو للعقل له القدرة على التفكير المنطقي والاستدلال والتمييز. إذ تستخدم كلمات كالمودة والعاطفة والحب والكراهية والشجاعة وكثير من الكلمات الأخرى مرتبطة بالقلب لتصويره على أنه يتمتع بقدرة عقلية وفكرية وأنه قادر على التمييز بين الخير والشر.

غالبا ما تشير الكتب المقدسة القديمة والكتب الدينية بما في ذلك القرآن الكريم إلى القلب كعضو فهم وبصيرة. وقد قدم جوهر مشتاق العديد من المراجع والاقتباسات في هذا الصدد. وكان هذا المفهوم هو دافعه إلى كتابة هذا الكتاب، إذ قدم حقائق علمية وأدلة تثبت دور القلب في هذا المجال. وقد وجدت نفسي متشوقاً إلى مواصلة القراءة للتعرف على الأدلة المقدمة. وإني على يقين أن القراء سيفعلون ذلك أيضا.

هذا الكتاب ليس محاولة لمقارنة وظيفة الدماغ بوظيفة القلب، حسبما أشار إليه الكاتب في نصه: "إن الغرض من البحث الوارد في هذا الكتاب ليس نفي أهمية الدماغ ولكن التأكيد على أهمية القلب"؛ مع أن الأمر قد يبدو عكس ذلك في بعض النصوص حتى للقراء المشككين. وسيتضح للقارئ، في النهاية، ويقر أن الدماغ هو مستودع المعرفة، والتعلم، والتحقق، وإشباع الفضول، والذاكرة، وجوانب التثبيت والتخزين والاسترجاع السريع والحسابات كلها. لكنه سيجد أيضاً، ونظراً لكثرة الحقائق والاقتباسات المثبتة علمياً والمقترنة مع المنظور الحالي الواسع للمقالات والتجارب، أن القلب، حقاً، يمتلك قدرة على التأثير على الدماغ وأن له أثراً في الفهم والفكر.

يحتوي هذا الكتاب على أمثلة تفرض على العقل المحب للاطلاع والاستقصاء أن يبادر إلى التفكير. وبطريقة ما، سنتفق جميعاً على أنه لو لم يكن للقلب ميولٌ، فلن نشعر بالرضا إلا ما ندر. وعموماً، فإن شعور القلب بذلك هو الرسالة المشجعة في الكتاب، التمييز بين الخير والشر، وعلاج القلب النهائي هو القلب المطمئن!

وسأختتم بحديث أورده الكاتب في هذا الكتاب وبآية من القرآن الكريم.

قلوبنا تعرف الخطأ. ففي حديث للنبي محمد ﷺ رواه وابصة بن معبد رضي الله عنه وكان قد جاء إلى رسول الله فقال له رسول الله ﷺ :

جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنْ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ، فَقَالَ نَعَمْ، فَجَمَعَ أَنَامِلَهُ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِنَّ فِي صَدْرِي وَيَقُولُ يَا وَابِصَةُ اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَاسْتَفْتِ نَفْسَكَ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ.

ومن القرآن الكريم:

"وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ۩

(سورة الأعراف، الآية 179)

د. علي أ. جواد
(دكتوراه في علم الوراثة، جامعة نيو برنسويك، كندا)
مدير جينيلنك، نيويورك

مقدمة

نعيش اليوم في عصر من المادية وهو عصر معاداة الروحانية أو، بالأحرى، العصر الأنسب لمجيء المسيح الدجال. والعلم الحديث في الغرب هو نتيجة ثورة العلماء والجماهير ضد الكنيسة. وتصنع الفلسفات المادية لأوغست كونت وهيغل وإميل دوركايم ونيتشه وسيغموند فرويد وكارل ماركس وتشارلز داروين الأساس النظري للفكر العلمي الحديث. ونتيجة لذلك، فإنه يتجاهل عامداً الجانب الروحي لشخصية الإنسان. ومن هنا نرى الفصل بين الجسد والروح في هذا العصر المادي. وبسبب هذا الفصل الذي نجده في الطب الحيوي الحديث والعلوم الاجتماعية فقد أجريت معظم البحوث على دماغ الإنسان على أساس النظر إلى القلب على أنه مجرد عضو مهمته الضخ. والفصل بين القلب والدماغ اليوم هو نتيجة للفصل القائم بين المسائل الدينية والعلمانية في المجتمع الغربي ونظامه التعليمي. ومع ذلك، فقد أجريت في السنوات العشرين الماضية بعض الأبحاث المثيرة للاهتمام في مجالات الطب الحيوي وعلم النفس والعلوم الاجتماعية حول قلب الإنسان، تدل على أن قلب الإنسان يمتلك نوعاً خاصاً من الذكاء وأنه يؤثر على الدماغ بطرق مختلفة. إلا أن تلك الأبحاث لا تزال في مراحلها الأولى، وسيستغرق الأمر بعض الوقت حتى يتقبل المجتمع العلمي العلماني السائد هذه النتائج البحثية. فمن الجلي في تاريخ العلم، أن معظم الاكتشافات العلمية واجهت معارضة في البداية ولكنها قُبلت في وقت لاحق بوصفها حقائق مسَلَّماً بها.

قبل بضعة عقود، أعلن رودولف شتاينر Rudolf Steiner، الفيلسوف الألماني والخبير التربوي، أن "أعظم اكتشاف في علم القرن العشرين هو أن القلب ليس مضخة فحسب بل هو أكثر من ذلك بكثير، وأن التحدي الأكبر في العصور القادمة للبشرية سيكون، في الواقع، السماح للقلب بتعليمنا التفكير بطريقة جديدة".[1] ويبدو أن الوقت قد حان الآن ليكشف لنا عن أن قلب الإنسان ليس مجرد عضو لضخ الدم ولكنه أكثر من ذلك بكثير، وأن أيام آليات نيوتن، التي كانت تعد قلب الإنسان مجرد عضو للضخ، ستصبح عما قريب مسألة من الماضي.

[1] Pearce, Joseph Chilton (1998). Waking Up to the Holographic Heart: Starting over with Education. Wild Duck Review IV (2).

قد يكون من المهم للقراء أن أذكر لهم السبب الذي دفعني إلى كتابة هذا الكتاب. لقد شعرت أن أحد الأسباب التي جعلت الناس يهملون علم التزكية أو تنقية القلب هو أنهم لا يعرفون أهمية القلب. فقد ذُكر ذكاء قلب الإنسان في مواضع مختلفة من القرآن. ولا شك أن كل ما جاء في القرآن صحيح لكن تفسيرنا ومعارفنا في الوقت الحاضر هو ما يمنع فهمنا الحالي لها. وقد يستغرق العلم الحديث سنوات لفهم الحكمة من آيات القرآن، لكنه سيصل إلى استنتاج معانيها عاجلاً أم آجلاً. وقد كان هذا هو الجانب الإعجازي من القرآن، الذي ذكره عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (المفسر الكبير وابن عم النبي ﷺ) عندما قال:

من آياته ما لا تفسر إلا بمرور الزمان

ومن العوامل الأخرى التي حفزتني ودفعتني إلى كتابة هذا الكتاب هو أن كتابي بعنوان "إطلاق اللحية: على أساس القرآن والسنة والأبحاث العلمية الحديثة" قد نشر مؤخراً. وكنت قد أبرزت فيه أهمية الجانب الظاهر في الإسلام. فشعرت بالحاجة أيضاً إلى التأكيد على الباطن من خلال الكتابة عن القلب، لأن الإسلام توازن وتلازم بين الظاهر والباطن. فنحن بحاجة إلى تطهير أنفسنا داخلياً وخارجياً للوصول إلى المرحلة النهائية من "النفس المطمئنة". في الواقع، إن تطهير قلوبنا من الأمراض الروحانية هو العامل الوحيد والأكثر أهمية لفوزنا يوم القيامة كما هو مذكور في القرآن الكريم.

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۞

(سورة الشعراء: الآية 88 - 89)

يصف الفصل الأول من هذا الكتاب قلب الإنسان في ضوء القرآن الكريم، وأحاديث النبي محمد ﷺ ، وتعليقات علماء الدين المسلمين، والأبحاث العلمية الحديثة. ويعرض الفصل الثاني الجوانب الفريدة للقلب من منظور علمي ديني. الفصل التالي هو عن العلاقة القلبية بين الأم والطفل. ويعرض الفصل الذي يليه البحث العلمي حول تأثير قلب الإنسان على الدماغ والعواطف. اما الفصل الأخير من هذا الكتاب، الذي أعتقد أنه من الممكن اعتباره أهم فصل في الكتاب، فيتناول أمراض القلب الروحانية وعلاجاتها.

ولقد بذلت كل جهد ممكن في هذا الكتاب لجعل لغته العلمية بسيطة قدر الإمكان من أجل القراء العاديين.

وأود أن أوضح جيداً في بداية هذا الكتاب أن الغرض من تقديم البحث العلمي المتعلق بالقلب بوصفه جهاز ذكاء ليس إثبات أن القرآن هو كلام الله لأننا نؤمن مسبقاً أن القرآن هو بالفعل كلام الله. أما الغرض من تقديم هذا البحث هو إبراز أهمية علم تنقية القلب (التزكية) واكتشاف بعض تفاصيل الحكمة القرآنية والنبوية كونها أصبحت متاحة من خلال البحث العلمي الحديث، وحتى يمكن عرض هذه النتائج البحثية على هذا النحو في هذا السياق للمجتمع المسلم وغير المسلم في العالم. والقرآن الكريم يشجعنا على التأمل في خلق الله في مواضع مختلفة ويؤكد على أهمية المعرفة من خلال قوله تعالى:

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

(سورة الزمر: الآية 9)

إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ

(سورة فاطر: الآية 28)

وأود أن أعرب عن شكري الخاص للدكتور بول بيرسال (Paul Pearsall, Ph.D.)، مؤلف كتاب شيفرة القلب (The Heart's Code) والدكتورين تشيلدر ورولن ماكراتي (Doc Childre & Rollin McCraty) من معهد هارتماث (HeartMath) لأن أبحاثهم في قلب الإنسان كانت قيمة للغاية. كما أود أن أشكر الدكتور علي جواد على صبره في قراءة مخطوطة كتابي وتعليقاته المتبصرة والثاقبة. كما أنني مدين بالامتنان لوالدي وزوجتي على تشجيعهم لي في هذا المشروع.

جوهر مشتاق

الفصل الأول

قلب الإنسان ليس مضخة فحسب

"يجب أن نتخلى عن فكرة القلب الاصطناعي لأننا اكتشفنا أن هذا العضو أكثر بكثير من مجرد محطة ضخ."
(الدكتور جراح القلب كريستيان برنارد Christian Barnard، دكتوراه في الطب، رائد عمليات زراعة القلب)[2]

لعدة قرون، تنازعت الكتب المقدسة الدينية والشعراء والأطباء والفلاسفة على فكرة أن القلب هو محور شخصياتنا. فكانوا يعتبرون القلب مصدر الحكمة والمشاعر. وفي كل لغات العالم وتراثها، يستخدم الناس كلمات ترتبط بالقلب. فعلى سبيل المثال، عندما يقع الناس في الحب، يعبرون عن مشاعرهم بعبارات ترتبط بالقلب مثل *"سَرَقَتْ قلبي"* أو *"أنتِ في قلبي"*. وعندما يعمل شخص ما بتفان كامل، نقول *"إنه يعمل مخلصاً من صميم قلبه"*. وللتعبير عن خيبة أمل شخص ما، نقول *"لقد انفطر قلبه"*. ونعتبر الشخص الفظ *"غليظ القلب"* والشخص اللامبالي *"ذا قلب بارد"*. وعندما نطلب من الناس أن يشيروا إلى أنفسهم، فإنهم عادة ما يشيرون إلى المنطقة التي فيها القلب من أجسامهم.

[2] Pearce, Joseph Chilton (1992). Evolution's End. New York, Harper San Francisco.

قلب الإنسان في ضوء القرآن

ترد في القرآن الكريم إشارات إلى "القلب" أو "الفؤاد" في مواضع مختلفة. وفعل "قَلَبَ" في اللغة العربية يعني حَوَّل، أدار، غيَّر الوضع رأسا على عقب، جعل أعلاه أسفله، إلخ. وكلمة "فؤاد" تعني "مكان للفائدة". والقرآن الكريم يحدد بوضوح قلب الإنسان على أنه مركز الفهم والحكمة والعقل. يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:

لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا

(سورة الأعراف: الآية 179)

وفي سورة الحج الآية 46 يقول سبحانه وتعالى:

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ

وفي سورة أخرى يقول الله سبحانه وتعالى:

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ

(سورة ق: الآية 37)

وبالمثل، يذكر في عدة مواضع أخرى من القرآن موضوع الختم على قلوب الكفار، على سبيل المثال: (2: 6-7، 7: 101، 4: 155، 63: 3، 16: 106-108). وبذلك فإن القرآن يذكر القلب كعضو للعقل وحدد مكانه في الصدر. وصحيح أن القرآن عندما يتحدث عن "القلب"، يقصد أنه أكثر بكثير من القلب العضوي، لكن الحقيقة المهمة هي أن القلب الروحي يكمن في القلب العضوي. لذلك، يمكن اعتبار القلب العضوي مركز التفاعل بين جسم الإنسان والقلب الروحي.[3] إن القلب العضوي يعمل كبوابة إلى روحانيات الإنسان. وهذا يعني أن القلب العضوي ليس مجرد عضو ضخ ولا بد أن له صفات الذكاء المذكورة في آيات القرآن.

---

[3] Haq, Manzurul. 'Heart': The Locus of Human Psyche in Ansari, Z. A., Ed. (1981). Qur'anic Concepts of Human Psyche. Islamabad, International Institute of Islamic Thought.

والجدير بالذكر أن كلمة "intellect"، التي تعني العقل في الإنجليزية، جاءت من الكلمة اللاتينية "intellectus" التي تعني المَلَكة التي يمكنها إدراك الما ورائيات - وهي ميزة من مزايا القلب.

يقول الدكتور أبصار أحمد (Absar Ahmad Ph.D.)، وهو عالم نفس وفيلسوف مسلم معاصر (وأخ الدكتور إصرار أحمد) عند شرحه للآية 179 من سورة الأعراف:

> "القرآن الكريم ... يركز تركيزاً كبيراً على القلب بوصفه عضواً فائق الإحساس في إدراك الحقائق الماورائية (ما وراء المادية) - التفقه في المصطلح القرآني. وكلمة قلب العربية تشير في معناها إلى مقر الملكات الفكرية والفهم وإلى مقر الأحاسيس والعواطف."[4]

[4] Ansari, Zafar Afaq, Ed. (1981). Qur'anic Concepts of Human Psyche. Islamabad, International Institute of Islamic Thought

قلب الإنسان في ضوء السنة النبوية

تزداد الفكرة المذكورة آنفاً وضوحاً من خلال أحاديث النبي محمد ﷺ، ومنها قوله:

"أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ". (متفق عليه)

من المؤكد أن حديث النبي محمد ﷺ هذا يتحدث عن القلب العضوي وهو جزء من حديث طويل. وقد أعطى فقهاء الإسلام حديث النبي محمد ﷺ هذا أهمية بالغة. فوفقاً لبعض الفقهاء يعد هذا الحديث أحد مبادئ الإسلام الأساسية. وفي تفسير هذا الحديث يقول ابن رجب الحنبلي "يمكن أن نعد القلب ملك أعضاء الجسم كلها والأعضاء جنوده المطيعين. فإن كان الملك تقياً يكن الجنود جميعهم أتقياء، وإن فسد الملك، فسد الجنود كلهم." [5] إن الإفساد الذي يسببه القلب السقيم للجسم يقصد به الأمراض البدنية والأمراض الروحية معاً كما سيتم بيانه لاحقاً في هذا الكتاب.

يذكر الله في القرآن الكريم خلق القلب مع خلق الأذنين والعينين في قوله تعالى:

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ۝

(سورة المؤمنين: الآية 78)

الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۝ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ۝ (سورة االسجدة: الآيات 7 - 9)

تذكر هذه الآيات القرآنية خلق حاسة السمع، والأعضاء المسؤولة عنها هي "الأذنين"، ثم تذكر خلق حاسة البصر، والأعضاء المسؤولة عنها هي "العيون". بعد ذلك تذكر خلق "الفؤاد" (القلب) الذي هو عضو الفهم والعقل. والقلب يأخذ المعلومات التي تحصل عليها حاستا السمع والبصر، ويعالجها القلب ثم يستخدم تلك المعلومات للتمييز بين الصواب والخطأ.

[5] Ibn Rajab, Hanbali (1995). Jaami Al-Uloom wal Hukam (Commentary on An-Nawawi's Forty Ahaadeth) (Urdu language). Lahore, Al-Faisal Publishers & Booksellars.

تقلبات إيقاع القلب كما ذكرت في الأحاديث النبوية

إحدى الكلمات المستخدمة لوصف قلب الإنسان في القرآن الكريم هي كلمة "قلب". وكلمة "قلب" في اللغة العربية تعني أن يحَوَّل، أن يدير الوجه للأعلى أو للأسفل، أن يدير رأسا على عقب، أن يغيِّر. وقد ورد في حديث أن النبي ﷺ كان يدعو قائلاً:

اللهم يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ [6]

وفي حديث آخر، ورد عن النبي محمد ﷺ أنه قال:

مَثَلُ الْقَلْبِ مَثَلُ الرِّيشَةِ تُقَلِّبُهَا الرِّيَاحُ بِفَلاةٍ [7]

قبل بضعة عقود، كان الأطباء يعتقدون أن معدل ضربات قلبنا يبقى ثابتا في كل الأوقات (72 نبضة في الدقيقة دائماً). لكن العلم اكتشف خلال السنوات العشرين الماضية أن التقلب والتغير في معدل ضربات القلب يحدث عند الشخص باستمرار. وقد وُصِف تقلب معدل ضربات القلب بأنه قياس للتغيرات في معدل ضربات القلب في كل نبضة. وإن كنا متصلين بجهاز مراقبة نظم القلب، فسنرى أن التباين في معدل ضربات القلب يحدث حتى عندما نكون جالسين خاملين لا نفعل شيئا. وأظهرت الأبحاث الآن أيضاً أنه إن لم يكن لدى الشخص تباين طبيعي في معدل ضربات القلب، فقد يكون هذا علامة على مرض لديه ومؤشراً قوياً على أن هذا الشخص سيواجه في المستقبل مشكلات صحية.[8] وبالإضافة إلى ذلك، اكتشف الباحثون في معهد هارت ماث (HeartMath) أيضا أن التقلب المستمر (التغير) في معدل ضربات القلب هو طريقة أخرى يتواصل بها القلب مع الدماغ كي يستجيب للمواقف والعواطف المختلفة عند مواجهتها.[9] وقد قال، قبل أكثر من 1200عام، العالم الكبير في القيم الروحية الإسلامية عبد الله بن المبارك، الذي امتلأ قلبه بحكمة الإسلام، عن تقلب القلب:

السُّكُونُ حَرَامٌ عَلى قُلُوبِ أَولِيَائِه [10]

---

[6] Ibn al-Jawzee, Imam Abdur Rehman (1992). Minhajul Qaasideen. Lahore, Idara Maarif Islami.

[7] Ibid

[8] Dekker, J.M., Schouten, E.G.,Klootwijk, P. and others. (1997). Heart rate variability from short electrocardiographic recordings predicts mortality from all causes in middle-aged and elderly men. The Zutphen Study. American Journal of Epidemiology 145(10), 899-908.

[9] McCraty, R., Atkinson, M., Tiller, W.A. & others (1995). The effects of emotions on short term heart rate variability using power spectrum analysis. American Journal of Cardiology 76,1089-1093.

[10] Ali Hijwairi, Sheikh (1970). Kashaf-ul-Mahjoob. (translated by Mian Mohammad Tufail) Lahore, Islamic Publications.

قلب الإنسان وفقاً للفقهاء المسلمين

كان العلماء والفقهاء المسلمون بالفعل ومنذ قرون يعرفون جيداً منزلة القلب العليا في جسم الإنسان. وقد كتب الإمام الغزالي في تحفته الفكرية "إحياء علوم الدين" بالتفصيل عن قلب الإنسان. كتب ما معناه:

"مع أن القلب الروحي، وهو المركز المسيطر على الروح، يختلف عن القلب العضوي، إلا أن عمله مرتبط به وموجه له .....
كل صفة تظهر في القلب سيكون لها تأثيرها المتدفق إلى الأعضاء بحيث تعمل فقط وفقا لتلك الصفة. وكذلك، قد يصل تأثير كل عمل تقوم به الأعضاء إلى القلب. وهذا يستمر في الحدوث بطريقة دائرية". [١١]

وعبر العلامة ابن الجوزي في كتابه "منهاج القاصدين" عن رأيه في قلب الإنسان:

"يجب أن نفهم أن القلب يحتل المنزلة العليا في جسم الإنسان. وأن هذا العضو هو الذي يعرف الله ويعمل على التقرب منه. والأعضاء الأخرى هي جنوده. والقلب بطبيعته يسعى إلى طريق الصواب. والحق أن من عرف قلبه فقد عرف الله". [١٢]

وقال العلامة ابن القيم، أثناء حديثه عن قلب الإنسان:

"لكن يبدو أن الحقيقة هي أن الوظيفة الفكرية تبدأ من القلب، ثم تجد تفصيلها وثمارها في الرأس." [13]

ذكر جلال الدين الرومي، العالم والشاعر الإسلامي، ذكاء قلب الإنسان في كتابه الشهير المثنوي في أبيات شعرية ترجمتها:

والعقل عقلان
أولهما عقل كعقل صبي يكتسبه في الكتَّابِ،
من الكتب والمعلمين والأفكار الجديدة والحفظ.
وقد يسمو عقلك على عقول الأخرين،
لكن حفظ تلك المعرفة كلها تصير عبئاً ثقيلا.
وبانشغالك بالبحث عن المعرفة تصبح لوحاً حافظاً،
أما اللوح المحفوظ فهو اللوح الذي جاوز كل هذه المعرفة.

---

[11] Ghazaali, Imam Abu Hamid (n.d.). Ihya Uloom ud Din. Karachi, Darul Isha'at.
[12] Ibn al-Jawzee, Imam Abdur Rehman (1992). Minhaajul Qaasideen. Lahore, Idara Maarif Islami.
[13] Al-Qoz, Anas Abdul-Hameed (Capt.) (2000). Men & The Universe: Reflections of Ibn Al- Qayyim. Riyadh, Darussalam.

أما العقل الآخر فهو هبة الله تعالى،
وينبع من قلب الروح.
وعندما يفيض من الصدر ماءُ معرفة وهبها الله،
فهو لا يتسنَّه ولا يأسَن
وإن سُدَّ فيضانه فلا ضرر من ذلك،
لأنه يفيض لحظة بلحظة من مسكنه في القلب.

أما العقل المكتسب فهو مثل قنوات الماء،
تدخل إلى الدار من الأزقة.
وإذا سُدت تلك القنوات خلت الدار من الماء،
فابحث عن النبع الذي في داخلك.
(المثنوي المجلد الرابع، 1960-1968 ترجمة كميل وكبير هيلمينسكي) [14]

ومن الجدير بالذكر أن علماء المسلمين أولئك كانوا يتحدثون عن عمل القلب وعلاقته بالعقل بكل هذا الوضوح في وقت لم تكن تتوفر فيه أدوات الهندسة الطبية الحيوية المتطورة، مع أن كلامهم يبدو وكأنه كتابة باحث في الطب الحيوي أو عالم نفس معرفي في العصر الحديث.

وعلى نحو مماثل، يذكر الدكتور ظافر آفاق الأنصاري (Zafar Afaq Ansari, Ph.D.)، عالم النفس الإسلامي المعاصر الشهير، أهمية قلب الإنسان بالكلمات التالية:

"والقلب، إن كان عمله سليماً، يمكنه أن يعزز الميول الإيجابية لدى لشخص مما يؤدي إلى حالة من الإدراك المستمر وفهم الذات. ومن ناحية أخرى، يمكن أن يخضع القلب للمطالب المتضاربة وتتغلب عليه الحاجة إلى الإشباع الفوري. وإن استمرت هذه الحالة، فإنها تؤدي إلى انغلاق القلب مما يضعف الوظائف الإدراكية والمعرفية لدى الشخص، ويصبح خاضعاً للنفس الأمارة بالسوء، ويتشوش فهمه لله وقدرته على اكتساب المعرفة ". [15]

---

[14] Helminski, Kabir (1999). The Knowing Heart: A Sufi Path of Transformation. Boston, Shambhala Publications.
[15] Ansari, Zafar Afaq, Ed. (1981). Qur'anic Concepts of Human Psyche. Islamabad, International Institute of Islamic Thought.

قبل الخوض في الأبحاث العلمية المتعلقة بالقلب، أود أن أقتبس ترجمة من شعر العلامة الدكتور محمد إقبال، الشاعر والفيلسوف والباحث الإسلامي الشهير، فقط للإشارة إلى أن علماء الدين والفلاسفة المسلمين لم يكن لديهم شك في قدرات قلب الإنسان المعرفية. وشعر الدكتور إقبال مليء بالإشارات إلى القلب. ففي أماكن مختلفة من شعره، يتحدث عن فطرة القلب بوصفها أكثر أهمية من ذكاء الدماغ.

على سبيل المثال، يقدم في إحدى قصائده بعنوان "العقل والقلب" حواراً بين القلب والدماغ، على النحو الآتي:

قال العقل يوماً للقلب
"أنا المرشد للضالين عن السراط المستقيم
رغم ارتباطي بالأرض، أبلغ السماء في العالي
فقط انظرْ إلى أي مدى يسمو مبلغي
أنا مسبوكٌ في قلب الخُضر الأسطوري
مقدرٌ لي في الدنيا أن أبين السراط المستقيم
أنا المترجم لكتاب الحياة
أنا سمة من سمات البيان الإلهي
أنت مجرد قطرة دم
وأنا يحسدني حتى شعاع الياقوت"

أجاب القلب: "حقاً كل ما قلت
لكن، انظر إلي، وكن ما شئت أن تكون
أنت تنظر إلى مصائب الحياة وأحداثها
وأنا أبصر من خلال رمادي الحياة وأبيضها
أنت تتعامل مع ظاهر الأشياء
وأنا أدرك الصراع الباطني
المعرفة لك، والفطرة لي
أنت تبحث عن الله، أما أنا فأعلم كيف تكون الصلاة
حدود الحكمة شك متصل
وأنا العلاج لعلة القنوط
أنت قنديل يضيء بقعة

وأنا مصباح يضيء ظلمة الدرب
أنت تهتم للزمان والمكان
وأنا يهمني يوم الحساب
إلى أي مكان أسمى قد أنتمي؟
لا أقول إلا أني أنا الأساس لله القادر الجبار".

"العقل والقلب" لمحمد إقبال [16]

[16] Iqbal, Sir Mohammad (Allama) (1987). Bang-e-Dara. Lahore, Sheikh Ghulam Ali & Sons. English translation of the poem taken from: http://underprogress.blogs.com/weblog/2003/10/intellect_and_h.html

قلب الإنسان في ضوء العلم الحديث

يعود تشبيه القلب بالمضخة إلى القرن التاسع عشر عندما اختُرع المحرك البخاري وأثارت حركات ضخ مكابسه إعجاب علماء الفيزيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) حتى أنهم بدأوا يطلقون على القلب اسم مضخة.[17] وفعلاً، لو نظرنا إلى كفاءة ضخ القلب، فهي مذهلة. القلب ينبض حوالي 100.000 مرة في اليوم، 40 مليون مرة في السنة، وينبض دون توقف لمدة ستين إلى سبعين عاماً، ويضخ جالونين من الدم في الدقيقة وأكثر من 100 جالون في الساعة. ويبلغ طول جهاز الأوعية الدموية الذي يرسل هذا الدم الواهب للحياة أكثر من 60.000 ميل، وهو أكثر من ضعفي محيط الأرض. [18] ويعمل قلب الإنسان بلا كلل من اللحظة التي يبدأ فيها النبض حتى اللحظة التي يتوقف فيها، أي أن القلب ينبض في معدل مدة عمر الشخص، أكثر من ملياري ونصف المليار مرة، دون أن يتوقف للراحة.

ومع ذلك، فإن الشيء الأكثر إثارة للاهتمام هو أن القلب ليس مجرد عضو ضخ. وقد ظهر في الآونة الأخيرة مجال طبي جديد يعرف باسم طب القلب العصبي - علم جهاز القلب العصبي (دماغ القلب). وقد أشار الدكتور ج. أندرو أرمور (J. Andrew Armour)، دكتوراه في الطب، ورائد في مجال طب القلب العصبي نتيجة لأبحاثه الرائدة في مجال علم التشريح ووظيفة جهاز القلب العصبي الذاتي) إلى جهاز القلب العصبي باسم "دماغ القلب الصغير".[19] هذا لأن هناك أكثر من 40.000 خلية عصبية في القلب من نفس نوع الخلايا الموجودة في الدماغ. وهذا عدد كبير حيث أن العديد من المراكز الصغيرة في دماغ الإنسان تتكون من هذا العدد من الخلايا العصبية.[20]

---

[17] Pearce, Joseph Chilton (2002). The Biology of Transcendence. Rochester, Vermont, Park Street Press.
[18] Schiefelbein, S. The Powerful River. In: Poole, R. ed. (1986). The Incredible Machine. Washington, D.C., The National Geographic Society.
[19] Armour, J. Andrew, M.D., Ph.D. & Ardell, Jeffry L., Ph.D. ed. (1994). Neurocardiology. New York, Oxford University Press.
[20] Ibid

علاوة على ذلك، يتكون جهاز القلب العصبي من هذه الخلايا العصبية القادرة على معالجة المعلومات دون مساعدة من خلايا الدماغ العصبية. وخلايا القلب العصبية هذه (دماغ القلب الصغير) تتلقى المعلومات من بقية أعضاء الجسم وتقوم بالتعديلات المناسبة عليها ثم تعيدها من القلب إلى بقية أعضاء الجسم بما في ذلك الدماغ. بالإضافة إلى ذلك، تمتلك هذه الخلايا العصبية نوعاً من الذاكرة قصيرة المدى تسمح لها بالعمل عملاً مستقلاً عن الجهاز العصبي المركزي.[21]

ومع أن توقيت ضربات القلب يمكن أن يقع تحت تأثير الدماغ (من خلال الجهاز العصبي اللاإرادي)، إلا أن مصدر ضربات القلب موجود داخل القلب. ويبدو أنه لا داعي لوجود روابط عصبية بين القلب والدماغ.[22] ولهذا السبب، عندما يخضع الشخص لعملية زرع قلب، يتم قطع جميع الروابط العصبية بين القلب والدماغ ومع ذلك فهذا لا يمنع القلب من العمل عندما يوضع في صدر الشخص الجديد.[23]

بعد عرض الأبحاث التي قام بها الدكتور أرمور وزملاؤه في مجال أمراض القلب العصبية، أدلى بالتعليقات الآتية حول القلب في كتابه، طب القلب العصبي - المبادئ التشريحية والوظيفية (Neurocardiology - Anatomical and Functional Principles):

> "يمتلك القلب دماغاً صغيراً خاصاً به قادراً على التحليل الحسابي المعقد بنفسه. وتشير البيانات بوضوح إلى أن جهاز القلب العصبي الذاتي يعمل أكثر بكثير من مجرد محطة ترحيل بسيطة للإسقاطات اللاإرادية الخارجية للقلب .....
> إن فهم التشريح المعقد ووظيفة جهاز القلب العصبي يضيف بُعداً جديداً إلى المفهوم الناشئ حديثاً عن القلب بوصفه مركزاً متطوراً لمعالجة المعلومات لا يعمل بالتنسيق مع الدماغ فحسب بل ويعمل مستقلاً عنه أيضاً."[24]

---

[21] Armour, J. Andrew, M.D., Ph.D. (2003). Neurocardiology: Anatomical and Functional Principles. Boulder Creek, California, Institute of HeartMath.
[22] Childre, Doc & Martin, Howard (1999). The HeartMath Solution. New York, HarperSanFrancisco.
[23] Ibid
[24] Armour, J. Andrew, M.D., Ph.D. (2003). Neurocardiology: Anatomical and Functional Principles. Boulder Creek, California, Institute of HeartMath.

بحث في المحادثات ثنائية الاتجاه بين القلب والدماغ

كان علماء وظائف الأعضاء، خلال السبعينيات من القرن العشرين، يعتقدون أن الدماغ يرسل الأوامر إلى القلب في اتجاه واحد والقلب يطيعها. وخلال فترة السبعينيات نفسها وبعد عدة سنوات من البحث اكتشف اثنان من علماء الفيزيولوجيا التواصل ثنائي الاتجاه بين القلب والدماغ وهما جون وبياتريس لاسي (John and Beatrice Lacey) من معهد فيلس للأبحاث في أوهايو (Fels Research Institute, Ohio).[25] اكتشفا أنه عندما يرسل الدماغ أمراً إلى القلب من خلال الجهاز العصبي فإن القلب لا يطيعه إطاعة عمياء، بل ظهر لهما أن القلب يستخدم نوعاً خاصاً من المنطق. وأن الدماغ يرسل أحياناً إشارة تنبيه إلى القلب فيتسارع نبض القلب وتتنبه أعضاء الجسم الأخرى أيضاً. ولكن، في أحيان أخرى، وعند إشارة التنبيه من الدماغ، يتباطأ القلب لأسباب غير معروفة بينما تبقى بقية أعضاء الجسم متنبهة. علاوة على ذلك، وجدا أن القلب يعيد أيضاً رسائل إلى الدماغ، لا يفهمها الدماغ فحسب بل يتبعها.[26]

وفي ملخص للبحث الذي أجرياه جون وبياتريس لاسي في الستينيات والسبعينيات، كتب الدكتور رولين ماكراتي (Rollin McCraty)، من معهد هارتمات (HeartMath) في كتابه "الديناميكا العصبية للقلب والدماغ: صنع العواطف" (Heart-Brain Neurodynamics: The Making of Emotions):

> "مع تطور أبحاثهما، اكتشفا أنه يبدو أن للقلب، على وجه الخصوص، منطقاً خاصاً به يختلف في اتجاهه في كثير من الأحيان عن اتجاه استجابات الجهاز العصبي اللاإرادي (ANS) الأخرى. وفي جوهر الأمر، ظهر أن القلب يتصرف كما لو كان له عقل خاص به".[27]

---

[25] Lacey, Beatrice C. & Lacey, John I. (1978). Two-Way Communication Between the Heart and the Brain: Significance of Time Within the Cardiac Cycle. American Psychologist, 99-113.

[26] Lacey, Beatrice C. & Lacey, John I. Some autonomic-central nervous system interrelationships. In: Black, Perry. Ed. (1970). Physiological Correlates of Emotion. New York, Academy Press: pp. 205-227.

[27] McCraty, Rollin, Ph.D. (2003). Heart-Brain Neurodynamics: The Making of Emotions. Boulder Creek, California, Institute of HeartMath.

الفصل الثاني

قلب الإنسان – عضو فريد في الجسم

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ
(سورة فصلت: الآية 53)

قلب الإنسان هو أقوى مولد ذبذبة في الجسم. تؤثر إيقاعاته القوية على كل عضو من أعضاء الجسم بما في ذلك الدماغ. وبسبب موقعه المحوري والحساس في أجسامنا، وضعه الله في قفص صدري قوي. ومن الجدير بالذكر، أن قلب الجنين يتطور ويبدأ في الضخ وهو في رحم الأم قبل وقت طويل من ظهور الدماغ. وأن القلب ذاتي الإيقاع، بمجرد أن يبدأ في النبض، يستمر في النبض حتى عندما يتوقف الدماغ عن العمل في حالات مثل "موت الدماغ". ويوصف موت الدماغ بأنه حالة يتوقف فيها نشاط الدماغ إلى الأبد. وبالتالي، حتى عندما يموت الدماغ، يبقى بإمكان القلب أن يعيش. ولكن عندما يموت القلب (ما لم نجد بديلاً للقلب)، لا يمكن للدماغ أن يعيش. وهناك حالات استمر فيها نمو أطفال كانوا يعانون من الموت الدماغي، ونساء حوامل كان تشخيصهن أنهن ميتات دماغياً بعد وقوع حوادث لهن، وأنجبن أطفالاً أصحاء.[28] وبالمقابل، إن توقف القلب عن النبض لبضع ثوان، فإننا نفقد الوعي. وبالتالي، فالدماغ يحتاج إلى القلب لبقائه على قيد الحياة أكثر من حاجة القلب إلى الدماغ.

وسنناقش في هذا الفصل بعض جوانب القلب الفريدة.

[28] Finucane, Thomas E. (M.D.) (2002 March 7). Brain Death (Book Review). New England Journal of Medicine 346(10), pg. 786.

قلب الإنسان والدوران حول الكعبة (الطواف)

قبل ظهور الإسلام، كان يعتقد بعض العرب أن أي شخص موهوب ويتمتع بذكاء متقد يمتلك قلبين بدلا من قلب واحد.[29] وعندما نزل القرآن الكريم، جاءت الآية الآتية في سورة الأحزاب لتقول:

مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ

(سورة الأحزاب: الآية 4)

ومن ثم، اجتث القرآن اعتقاد الوثنيين الخرافي وأوضح أن البشر لا يمكن أن يمتلكوا سوى قلب واحد. ومن المثير أن نلاحظ أن الطواف حول الكعبة، بيت الله الحرام، يكون بعكس دوران عقارب الساعة، أي أن الجانب الأيسر من الجسم يكون مواجهاً للكعبة. ونلاحظ هذه الحركة نفسها في الطبيعة. فكل الكواكب في مجموعتنا الشمسية، بما فيها الأرض، تدور حول الشمس بعكس دوران عقارب الساعة. وقد قال بعض فقهاء الإسلام إن الطواف حول الكعبة يتم بعكس دوران عقارب الساعة لأن القلب مائل نحو اليسار وبالتالي يكون مائلاً نحو الكعبة أثناء الطواف. [30] ولما أن النفس البشرية تتوق إلى لقاء الله، فإن القلب (وهو مسكن النفس) يميل نحو بيت الله أثناء الطواف تعبيراً عن تلك الرغبة في لقاء الله. وعلاوة على ذلك، فإن الكعبة ترمز إلى مفهوم التوحيد الإسلامي. ونحن المسلمين ندلل في طوافنا على أن الله هو محور الوجود وأنه مهوى قلوبنا.

---

[29] Daryabadi, Abdul Majid (1991). Tafsir Majidi (Commentary of the Holy Qur'an). Karachi,Darul Ishaat.

[30] Yusuf, Hamza (2004). Diseases of the Heart: Signs, Symptoms and Cures of the Spiritual Diseases of the Heart. Chicago, Starlatch Press.

قلب الإنسان وصلاة الجماعة

تتشابه خلايا القلب وبقية خلايا الجسم من حيث تركيبها الكيميائي. إلا أن شيئاً واحداً يجعل خلايا القلب تختلف عن خلايا بقية أعضاء الجسم ويجعلها فريدة من نوعها، ألا وهو أن خلايا القلب هي الخلايا الوحيدة في الجسم التي تنبض (أي أن لها ضربات متناغمة).

إن وضعنا خلية قلب واحدة عل شريحة وراقبناها تحت المجهر في المخبر، نلاحظ أن خلية القلب الواحدة هذه تظل تنبض لفترة قصيرة ثم تفقد إيقاعها وتصبح ضعيفة ثم تموت. وكذلك لو وضعنا خليتا قلب على شريحة وباعدنا بينهما كثيراً، فإنهما تموتان أيضاً بعد فترة وجيزة من النبض وتفقدان إيقاعهما.

لكن، لو أخذنا خليتين ووضعناهما متقاربتين عل شريحة (دون حاجة لتكونا متلاصقتين)، فسيفاجئنا أن نرى أن الخليتين ستبدآن بالنبض بالتزامن (بنفس الإيقاع) وأنهما لا تموتان. ونفس الظاهرة تحدث على نطاق أكبر، أي في القلب الكامل. كل خلايا القلب تنبض بالتزامن (متوحدة بنفس الإيقاع) وهذا ما يجعل القلب عضواً قوياً.

ما سبب النبض المتزامن لخليتي القلب (مع عدم تلامسهما) وما الذي يمنع موتهما؟

لما أن في القلب مليارات الخلايا الصغيرة التي تنبض متوحدة فإنها تنتج طاقة كهربائية تولد حقلاً كهرومغناطيسياً. ووفقاً لمؤلف كتاب علم أحياء التسامي (The Biology of Transcendence) جوزيف تشلتون بيرس (Joseph Chilton Pearce) فإنه عندما تتطابق (تتزامن) الأمواج الكهرومغناطيسية التي تنتجها الخليتان عل الشريحة تقوي كل منهما الأخرى وتبدآن بالنبض متحدتين.[31]

يمكن ملاحظة هذه الظاهرة على مستوى أكبر أيضا. فعندما يتواجد أشخاص في غرفة على مقربة شديدة من بعضهم، تبدأ قلوبهم بالنبض بنفس الإيقاع، حتى أن نمط تنفسهم يتزامن في مثل هذه الحالات.

---

[31] Pearce, Joseph Chilton (2002). The Biology of Transcendence. Rochester, Vermont, Park Street Press.

ومن البحث المذكور أعلاه حول خلايا القلب، يمكن فهم وصية النبي محمد ﷺ المهمة حول تسوية الصفوف في صلاة الجماعة. يروي النعمان بن بشير حديثاً عن النبي محمد ﷺ كان يطلب فيه من أصحابه تسوية صفوفهم قبل الصلاة:

عنْ أبي عبدِ اللهِ النُّعمانِ بنِ بشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قَالَ: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقولُ: (لتُسَوُّنَّ صُفوفَكم أو ليُخالِفنَّ اللهُ بينَ وُجوهِكم). متفق عليه. وفي رواية: (لا تختلفوا فتختلف قلوبكم) سنن أبي داود [32]

وعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم يَمْسَحُ مَنَاكِبَنَا فِي الصَّلاةِ وَيَقُولُ: (اسْتَوُوا وَلا تَخْتَلِفُوا؛ فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ....) رواه مسلم.

اكتشف علماء الفيزياء الحيوية أن القلب يولد مجالاً كهرومغناطيسياً قويا جداً يمكن قياسه من مسافة تصل إلى عشرة أقدام بأجهزة كأجهزة قياس المغناطيسية. وأن المجال الكهرومغناطيسي الذي ينتجه القلب يشمل الجسم كله. في الواقع، إن هذا المجال الكهرومغنطيسي قوي جداً إلى درجة أنه يمكننا قراءة مخطط كهربية القلب من مسافة بعيدة عن الجسم تصل إلى ثلاثة أقدام. وقد أظهرت الأبحاث أيضا أنه عندما يكون الناس على مقربة من بعضهم، فإنهم يتبادلون الطاقة الكهرومغناطيسية التي تنتجها قلوبهم، وتبادل الطاقة هذا يمكن الكشف عن باستخدام أدوات حساسة.[33] وبالإضافة إلى ذلك، تخضع خلايا القلب لظاهرة "التجاوب" المشابهة للبندول. وقد اكتشف هذه الظاهرة في القرن السابع عشر عالم أوروبي يدعى كريستيان هيغنز (Christiaan Huygens). فعندما يكون لدينا العديد من البندولات تتأرجح معاً في غرفة، بغض النظر عن الفرق في مدى تأرجحها في البداية، سرعان ما تبدأ جميعها في التأرجح بنفس إيقاع البندول الأكبر لأنه يحتوي على أكبر إيقاع. وهذه الظاهرة تكون في الأجهزة الحيوية أيضاً. فالقلوب أيضا تولد موجات عندما تنبض (وهي أكبر مولدات الذبذبة في الجسم). هذا يعني أن قلوب المجتمعين معاً تبدأ في التأثر بالموجات التي يولدها القلب الأقوى - والذي يمكن أن يكون في بعض الأحيان قلب القائد - وتبدأ في النبض بنفس إيقاع القلب الأقوى (مدفوعة إلى التجاوب).[34]

---

[32] Abu Dawud, Imam Sulayman bin Ash'as Sajastani (1983). Sunan Abu Dawud. Lahore, Islamic Academy Urdu Bazaar.

[33] McCraty, R. (PhD), Atkinson, M., Tomasino, D. (BA) & Tiller, W.A. (PhD) The Electricity of Touch: Detection and measurement of cardiac energy exchange between people. In: Pribram, K.H. Ed. (1998). Brain and Values: Is a Biological Science of Values Possible. Mahwah, NJ, Lawrence Erlbaum Associates: pp. 359-379.

[34] Childre, Doc & Martin, Howard (1999). The HeartMath Solution. New York, HarperSanFrancisco.

عندما كان أصحاب النبي محمد ﷺ يجلسون في حضوره، كانوا يذكرون الله أكثر بكثير مما كانوا يذكرونه عندما يكونون وحدهم. وبما أن قلب النبي محمد ﷺ كان دائم الذكر لله - إذ أن قلبه كان يبقى يقظاً حتى عندما تكون عيناه نائمتين - فقد كان قلبه يدفع قلب أصحابه إلى التجاوب.[35]

وعندما يصلي المسلمون خلف إمام واحد ويسوون صفوفهم تتزامن بالتالي قلوبهم، فتنبض نبضاً واحداً وبذلك تتقوى. وهذا هو أيضاً السبب في أن قوة العبادة الجماعية لها ميزة خاصة في الإسلام كما ورد ذكرها في حديث النبي محمد ﷺ:

عن ابن عباس - رضِي الله عنهما - مرفوعاً: "خير الصحابة أربعة، وخير السَّرَايَا أَرْبَعُمِائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن يُغْلَبَ اثنا عشر ألفاً مِنْ قِلَّةٍ."

وتعليقاً على الحكمة الكامنة وراء هذا الحديث، كتبت جانيت حب الله (Jeanette Hablullah.):

"لدينا تجمع أكبر من هذا في بعض المدن هنا في الولايات المتحدة يحصل مرتين على الأقل في السنة ولكن أين تأثيرنا؟ قلوبنا لم تصل بعد إلى المستوى اللازم.
إذ لا بد أولاً أن يُنقّي القلبُ صاحبَه ويصلحه، وبعدها سينضم إلى قلوب أخرى نقية وصالحة. وعندما يحصل هذا، لن يكون في هذا الكون شيء لديه القوة الكافية ليقف ضده."[36]

قال شيخ الهند، محمود الحسن (توفي عام 1922 م)، الذي سجنته الحكومة البريطانية في الهند في جزيرة مالطا، إنه فكر خلال سنوات سجنه في سبب انحدار الأمة الإسلامية وتوصل إلى الاستنتاج الآتي:

"يبدو أن هناك سببين لتراجع الأمة الإسلامية اليوم:
1) هجر المسلمين للقرآن
2) تفكك المسلمين وتفرقهم."

---

[35] Yusuf, Hamza Putting the Heart into Worship (ISNA 1999) (audio speech). Hawyard, Alhambra Productions.
[36] Hablullah, Jeanette, ND (2002). The Magnificent Organ: The Heart of Qur'an, Hadith, Science and Wholistic Healing Experiences. Columbia, MO, Olive Media Services.

لقد أصبح اليوم نظام الدفاع (الجهاز المناعي) للأمة الإسلامية ضعيفاً جداً. يبدو كما لو أنه يعاني من مرض نقص المناعة. فواحدة من ميزات الجسم السليم ذي النظام الدفاعي السليم هي أن الأجسام المضادة (جيش الدفاع عن الجسم) تتعلم من الماضي، أي أنها عندما تواجه فيروساً أو أي دخيل ضار آخر في الجسم تتذكره، وإذا دخل الجسم مرة أخرى، فإن هذه الأجسام المضادة تدافع عن الجسم متحدة. لذلك ليس من الحكمة إلقاء اللوم على غير المسلمين في حال المسلمين اليوم. فإذا دخل فيروس إلى أجسام أربعة أشخاص ومرض واحد منهم، لا يمكننا ببساطة إلقاء اللوم في ذلك على الفيروس. لماذا لم يمرض الأشخاص الثلاثة الآخرون؟ لأن جهازهم المناعي قوي، أما الشخص الذي كان نظامه الدفاعي ضعيفاً فقد مرض. وقد أصاب الإمام الشافعي بحق حين قال في أحد أبياته الشعرية:

نَعيبُ زَمانَنا وَالعَيبُ فينا وَما لِزَمانِنا عَيبٌ سِوانا

(ديوان الشافعي)

كان لدى صحابة النبي محمد ﷺ نظام مناعة وحصانة قوي جداً وكانت قلوبهم متحدة لأنهم حصنوا أنفسهم بالقران. ويحتاج مسلمو اليوم أيضاً إلى لقاح من القرآن والسنة مرة واحدة على الأقل يومياً من أجل توحيد قلوبهم مرة أخرى. يقول الله سبحانه وتعالى في الآية 103 من سورة آل عمران:

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا

ويقول أيضاً في الآية 59 من سورة النساء:

فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ

وقد أوضح رسول الله ﷺ هذه الوصفة في الحديث الصحيح الآتي:

إني قد تركتُ فيكم ما إن اعتصمتُم به فلن تَضِلُّوا أبدًا، كتابَ اللهِ، وسُنَّتي.

صحيح مسلم[37]

إن فهم مسلمو اليوم رسالة الأمر بالوحدة الواردة في القرآن والسنة والتصرف بناء عليها واتحدوا، سيستطيعون النهوض بأنفسهم من حالة التردي التي هم فيها اليوم. وهذه الرسالة تنطبق على المسلمين في أنحاء العالم كلها.

[37] Muslim, Imam Abul Hussain Qasheeri (1981). Sahih Muslim. Lahore, Khalid Ihsan Publishers.

على المسلمين اليوم أن يزرعوا التسامح تجاه إخوانهم المسلمين الذين يختلفون عنهم. علينا كأمة مسلمة أن نتعلم التضحية بالأنا في مجتمعنا، ونتحمل الاختلاف في الرأي ضمن حدود القرآن والسنة، ويجب ألا يكون تنافسنا في رفع مستوى معيشتنا وثروتنا. وعندما تتوحد القلوب، سترافقها قوة هائلة، بينما عندما تختلف وتتفرق، سيكون كل منها ضعيفاً. والقول المأثور القديم، إن الوحدة قوة، يصح دائماً، وسلوك خلايا القلب التي تنبض متحدة يشهد على هذه الحقيقة. من المهم للغاية أن يكون المسلمون ناشطين اجتماعياً وأن يكونوا مترابطين بالجماعة. وفي ضوء ذلك، يمكن بسهولة فهم القول الشهير لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، الخليفة الراشدي الثاني:

لَا إِسْلامَ إِلَّا بِالْجَمَاعَة وَلا جَمَاعَة إِلَّا بِالْإِمَارَة

كذلك وفي ضوء البحث أعلاه، يصبح واضحاً أنه عندما يطلب الله من المسلمين تذكر فضله في التأليف بين قلوبهم، أن هذا يعني أكثر من مجرد معان مجازية. قال سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ۚ

(سورة آل عمران: الآية 103)

قلب الإنسان وذكر الله

لقد خلق الله قلبَ الإنسان ولسانَه لذكره. والقلب يتطهر من خلال ذكر الله والأعمال الصالحات. كتبت لويزا يونغ (Louisa Young)، الصحفية والمؤلفة البريطانية، تعليقاً على الذكر في الإسلام، في كتابها "كتاب القلب *The Book of the Heart*":

"إن النبض البسيط - ضربات القلب - هو ذلك الإيقاع المستمر الذي يوجه التفكر ويقوده في كل الأديان - هو الرحلة داخل القلب... ومن الطقوس الإسلامية تلاوة القرآن. وإيقاع الكلمات العربية المتدفق والمنوم مغناطيسياً غالبا ما شُبِّه بنبض القلب. إن الحزن الناجم عن البعد عن الله يخففه ذكر الله: "أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ". وهذا الذكر هو ذكر وتكرار ذهنيَ ولفظي لآية من القرآن أو لأحد أسماء الله".[38]

إن قلب الإنسان يستجيب لذكر الله. وقد تبين هذا بتجارب علمية منفصلة عن بعضها أجراها عالمان مسلمان في مكانين مختلفين من العالم. إحدى هذه الدراسات العلمية أجراها عام 1984 ولا يزال يجريها الدكتور أحمد القاضي (Dr. Ahmed Elkadi) الذي يستخدم أكثر الأدوات تطورا وحداثة في بحثه في "عيادات أكبر Akbar Clinics" في مدينة بنما في فلوريدا في الولايات المتحدة الأمريكية. في هذه السلسلة من التجارب التي أجراها ونشرها الدكتور القاضي، رصد آثار الاستماع إلى تلاوة القرآن على معايير الوظائف العضوية، أي معدل ضربات القلب وضغط الدم وتوتر العضلات، في ثلاث مجموعات من المتطوعين: مسلمون يفهمون العربية، ومسلمون لا يفهمون العربية، وغير مسلمين لا يفهمون العربية.

أظهرت نتائج الدراسة بوضوح شديد أن الاستماع إلى تلاوة القرآن الكريم أدى إلى استرخاء العضلات الملساء وتقليل معدل ضربات القلب وتقليل تغيرات الوظائف العضوية كلها، وذلك مؤشر على التحرر من التوتر والقلق. وقد ظهرت هذه الآثار على المسلمين وغير المسلمين، بغض النظر عما إذا كانوا يفهمون اللغة العربية أم لا.

---

[38] Young, Louisa (2003). The Book Of The Heart. New York, Doubleday.

ومن الملاحظات المهمة الأخرى كانت في القرآن نفسه. كانت تلاوة الآيات التي تَعِدُ بالمكافأة (آيات الترغيب) ذات تأثير أكبر في تخفيف التوتر على المستمعين (أي هدوء أكبر في معدل ضربات القلب). بينما كان أثر الاستماع إلى الآيات التي تعد بالعقاب (آيات الترهيب) أقل تخفيفاً للتوتر.[39]

والقرآن الكريم يتضمن آيات ترغيب (إقناع) وآيات ترهيب (ردع) لأنه يذكرنا دائماً بثواب عيش حياة فاضلة وبمخاطر عيش حياة تشوبها الخطيئة. ووجود آيات الترغيب والترهيب معاً يقودنا إلى **الصراط المستقيم من خلال خلق توازن بين الأمل والخوف. ومن هنا تبين هذه الدراسة الآثار المفيدة لذكر الله على القلب العضوي.**

وقد أجرى الدكتور محمد خير العرقسوسي (Dr. Muhammad Khair al-Irgisoosi) دراسة علمية مماثلة في جامعة الخرطوم في السودان في بحثه لنيل درجة الدكتوراه تحت إشراف الدكتور مالك بدري (Dr. Malik Badri)، عالم النفس الإسلامي المشهور عالمياً. وكانت تتركز مواضيع هذه الدراسة على مرضى يعانون من ارتفاع ضغط الدم الناجم عن نمط حياة مجهد أو عن أسباب أخرى. وأظهرت نتائج الدراسة أيضاً أن الاستماع إلى تلاوة القرآن الكريم ساهم بقدر كبير في خفض ضغط الدم لدى المرضى.[40] وبذلك فإن نتائج هذا البحث تدعم نتائج البحث الذي أجري في "عيادات أكبر Akbar Clinics" في الولايات المتحدة. ولا نستغرب أن صحابة النبي محمد ﷺ استخدموا الذكر القرآني في علاج حالات مرضية عند الناس. ولذلك، نجد حديثاً يؤكد فيه النبي محمد ﷺ على تلاوة القرآن بأفضل صوت طبيعي:

زَيِّنُوا القُرآنَ بِأَصوَاتِكُم

سنن أبي داود[41]

---

[39] Elkadi, Ahmed *Health and Healing in the Qur'an* in Athar, Shahid, M.D., Ed. (1993). Islamic Perspectives in Medicine - A Survey of Islamic Medicine: Achievements & Contemporary Issues. Indianapolis, American Trust Publications.

[40] Badri, Malik (2000). Contemplation: An Islamic Psychospiritual Study. London, The International Institute of Islamic Thought.

[41] Abu Dawud, Imam Sulayman bin Ash'as Sajastani (1983). Sunan Abu Dawud. Volume 1. Lahore, Islamic Academy Urdu Bazaar.

قلب الإنسان وحدس الرجال والنساء

وفقاً لقاموس ويبستر فإن "الحدس" هو المعرفة الفورية أو التعلم الفوري لشيء ما دون استخدام واع للتفكير. وبالتالي، فإن الحدس عملية تُكتسب بها المعرفة دون تفكير. وبعبارة أخرى، الحدس هو العملية التي نكتسب بها المعلومات التي تكون عادة خارج نطاق ادراكنا الواعي. والناس يستخدمون مصطلحات مثل "بصيرة" و"حاسة سادسة" و"إحساس داخلي" لوصف حدسهم تجاه حدث مستقبلي أو غرض غيبي. وغالباً ما يكون الشخص الذي لديه حدس متأكداً من التجربة. والحدس يمكن أن يشمل مشاعر إيجابية مثل الأمل والإثارة أو مشاعر سلبية مثل التشاؤم أو الخوف أو الرعب. والناس من جميع الثقافات يعرفون عموماً أن لقلوبنا أثراً مهماً في حدسنا. ومع ذلك، لم تُجرَ أبحاث كثيرة في المجال العلمي لتوضيح أثر القلب فيما يتعلق بالحدس. لكن، من أجل إعادة إنتاج وتوسيع نتائج التجارب السابقة التي أظهرت أن أجسامنا لديها القدرة على الاستجابة لحافز مثير عاطفياً قبل ثوان من حدوثه بالفعل، أجرت مجموعة من العلماء سلسلة من التجارب باستخدام أحدث الأدوات الطبية الحيوية على مجموعة من 26 مشاركاً.[42] وقد نشر هذا البحث الشامل بعنوان "أدلة الحدس الكهروفيزيولوجية: الجزء 1 - أثر القلب المدهش Electrophysiological Evidence of Intuition: Part 1 The Surprising Role of the Heart" في "مجلة الطب البديل والتكميلي *The Journal of Alternative and Complementary Medicine*" وكانت الاجراءات التجريبية التي استخدمها الباحثون على المشاركين لقياس الحدس هي: استجابة الجلد الكهربائية، وتخطيط كهربية الدماغ (Electroencephalography: EEG) لقياس إشارة الحدس في الدماغ، وتخطيط كهربية القلب (Electrocardiography: ECG) لقياس الزيادة أو النقصان في إشارة القلب. وقد استخدموا هذه الاجراءات كي يتحققوا أين ومتى تتم معالجة معلومات الحدس في الدماغ وفي الجسم.

---

[42] McCraty, Rollin, Ph.D., Atkinson, Mike & Bradley, Raymond T., Ph.D. (2004). Electrophysiological Evidence of Intuition: The Surprising Role of the Heart. Journal of Alternative and Complementary Medicine 10(1), 133-143.

كانت نتائج هذه الدراسة مذهلة للغاية. فقد وجدوا أنه يبدو أن كلاً من القلب والدماغ يستقبلان ويستجيبان لمعلومات الحدس. وقد حدث تباطؤ في معدل ضربات القلب (انخفاض في معدل ضربات القلب) قبل حدوث المحفزات العاطفية المستقبلية أكبر بكثير مقارنة بالمحفزات الهادئة المستقبلية. وكشفت هذه الدراسة البحثية أن للقلب أثراً مباشراً في معالجة معلومات الحدس وفك رموزها. ومن النتائج الأخرى المثيرة جداً للاهتمام أنه ظهر وجود اختلافات كبيرة بين الطريقة التي يعالج بها الرجال معلومات الحدس والطريقة التي تعالج بها النساء نفس النوع من المعلومات. إذ أشارت النتائج إلى أن القلب لدى الإناث، كان يتحكم في الإشارات الكهربائية في قشرة الدماغ عند معالجة معلومات الحدس. وبالتالي، "فإن الإناث أكثر انسجاماً مع التعليمات القادمة من القلب".[43] وهذا يعني أن حدس الأنثى يعتمد على القلب أكثر من الدماغ. وهذا له دلالات عميقة. عندما يكون النظام الأسري في المجتمع متفككاً، يكون فيه التوازن بين حدس الذكور (الميالة إلى الدماغ) وحدس الإناث (الميالة إلى القلب) معدوماً. ونتيجة لذلك، نرى دماراً في النظام الاجتماعي في المجتمع.

[43] Ibid

قلب الإنسان وقبول الإسلام

لقد رأينا في القسم السابق أن الأبحاث العلمية الحديثة أظهرت أن الحدس لدى الإناث يعتمد على استجابة القلب أكثر مما يعتمد عل استجابة الدماغ. وقد يكون سبب هذا أن النساء أكثر حساسية للشعور بالعواطف. ولا غرو أن يُنظر إلى النساء على أنهن عاطفيات أكثر من الرجال. وبعبارة أخرى، يمكننا القول إن النساء، مقارنة بالرجال، غالباً ما يستخدمن قلوبهن وأدمغتهن جنبا إلى جنب أثناء التفكير. وإذا اعتبرنا هذه النقطة، يمكننا أن نفهم بسهولة السبب في أن 4 من كل 5 من الأشخاص الذين يعتنقون الإسلام هم من النساء.

وهنا لا بد من إيضاح أن قرار اعتناق الإسلام لا يستند إلى مجرد عواطف لأن جميع هؤلاء النساء تقريبا يبقين ثابتات على قرارهن باعتناق الإسلام حتى وفاتهن. واحدة من هؤلاء النساء الكثيرات اللواتي اعتنقن الإسلام هي "جانيت حبل الله Jeanette Hablullah"، طبيبة أمراض عصبية من الولايات المتحدة الأمريكية. اختارت جانيت الإسلام بعد سنوات عديدة من كونها كاثوليكية. وفي كتابها عن القلب، "العضو الرائع The Magnificent Organ"، تصف القلب البشري بأنه ليس مجرد عضو حيوي وكيان مادي ولكنه أيضا مصدر التبصر والحكمة.[44] وتوضح أيضاً أن القلب التقي الذي يخاف الله يشفي أجسادنا وأرواحنا.

قال العالم الفرنسي والفيلسوف الديني بليز باسكال (1623-1662م)، (الذي اشتهر بـ رهان باسكال) ذات مرة عن قلب الإنسان: "القلب له بواعث لن يعرفها العقل أبدا." وكان يقصد "فطرتنا" بهذه المقولة، التي كثيرا ما يقتبسها الآخرون. وفي مقولة أخرى له أوضح أن حقيقة الدين غالباً ما تُعرف من خلال الفطرة، وذلك عندما قال: "أولئك الذين منحهم الله الدين بالفطرة محظوظون جداً ومقتنعون حقاً".[45]

يتحدث القرآن عن العهد المأخوذ من جميع النفوس قبل ولادتها. ويبدو أن القلب يحتوي على الذاكرة الأزلية لعهدنا مع الله الذي أخذه من كل نفس قبل مجيئها إلى هذا العالم، فقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى:

---

[44] Hablullah, Jeanette, ND (2002). The Magnificent Organ: The Heart of Qur'an, Hadith, Science and Wholistic Healing Experiences. Columbia, MO, Olive Media Services.
[45] Clouser, Roy (1999). Knowing with the Heart: Religious Experience & Belief in God. Downers Grove, IL, InterVarsity Press.

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۝

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ۝

(سورة الأعراف: الآية 172 والآية 179)

يمكن في ضوء هذه الآية فهم أثر القلب في تقبل معتنقي الإسلام الجدد له. إذ نلاحظ أنه بعد ذكر العهد الذي شهد به جميع البشر في الآية 172 من سورة الأعراف، يتحدث القرآن عن القلب بصفته جهازاً للفهم والفكر في الآية رقم 179 من نفس السورة. وهذه ليست مجرد صدفة. فتذكيرنا بعهدنا مع الله ثم بعد ذلك مباشرة ذكر القرآن القلب كجهاز للعقل يعني أن قلوبنا تحمل الذاكرة الأزلية لعهدنا المأخوذ من أنفسنا مع الله.

وفي آية أخرى، يسأل القرآن غير المسلمين سؤالاً مباشراً يذكر فيه قلوبهم:

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ۝

(سورة محمد: الآية 24)

بالإضافة إلى ذلك، تتضح هذه المسألة أكثر من خلال الملاحظات التي أدلى بها الدكتور محمد إقبال (Dr. Mohammad Iqbal، 1876 - 1938)، فيلسوف وشاعر إسلامي اشتهر في القرن العشرين، عندما أعرب عن الحاجة إلى حركة إسلامية تركز في عملها على قلوب الناس. فقد قال لأحد تلامذته:

> "وفقا لفهمي، يعالج قلب الإنسان ودماغه المعلومات بطرق مختلفة. فقد يرفض الدماغ في بعض الأحيان العديد من البراهين القوية ولا يهتم بها، بينما قد يتأثر القلب بحادثة صغيرة، وفجأة، قد يتغير نمط الحياة بأكمله. ومسألة قبول الإسلام ترتبط بالقلب أكثر بكثير من ارتباطها بالدماغ. والشيء الأساسي الذي يجب على الداعية الإسلامي معرفته، هو الأشياء التي تمس قلب غير المؤمنين. فنحن لدينا العديد من الأدلة العقلية التي تثبت صدق الإسلام ولكن ليس لدينا سوى القليل من "الأدلة القلبية"...

وفي قبول الإسلام، القلب هو الشيء الأساسي. فعندما يوافق القلب على تغيير شيء ما ويقتنع بمسألة ما، لن يكون أمام الجسم كله خيار سوى طاعة القلب". [46]

في الحقيقة، إن مسألة قبول التوجيه الإلهي أو رفضه تعتمد على القلب أكثر مما تعتمد على الدماغ. فعندما ينفتح القلب على الحق، يتبعه الجسم كله. كما يقول الله في القرآن الكريم:

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ

(سورة الأنعام: الآية 125)

خلال حياتنا اليومية، يكون دماغنا في موضع أعلى من قلوبنا وقد يؤدي هذا الوضع في بعض الأحيان إلى عنجهية دماغنا. ولكن عندما نسجد لله خالق السماوات والأرض يصبح قلبنا في مكان أعلى من دماغنا، وهذه هي الحالة الأقرب إلى الله. وقد ورد في الحديث نبوي:

"أقربُ مَا يَكونُ العبْدُ مِن ربِّهِ وَهَو ساجدٌ، فَأَكثِرُوا الدُّعاءَ" رواهُ مسلم [47]

ولعله من المناسب أن نروي حادثة واحدة (من بين حوادث كثيرة) من زمن النبي محمد ﷺ لوصف تغير القلب كما رواه العلامة ابن القيم الجوزية في كتابه "زاد المعاد":

أراد فضالة بن عمير بن الملوح الليثي قتل النبي صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت عام الفتح؛ فلما دنا منه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفضالة؟ قال: نعم، فضالة يا رسول الله؛ قال: ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لا شيء، كنت أذكر الله؛ قال: فضحك النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: أستغفر الله، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه؛ فكان فَضالة يقول: والله، ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إليَّ منه، قال فضالة: فرجعت إلى أهلي، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت: هلمَّ إلى الحديث، فقلت: لا، وانبعث فضالة يقول:

قالت: هلم إلى الحديث فقلت: لا، يأبى عليك الله والإسلام. [48]

---

[46] Khan, Wahiduddin (1994). Tablighi Tahreek. New Delhi, Al-Risala Books.
[47] Muslim, Imam Abul Hussain Qasheeri (1981). Sahih Muslim. Lahore, Khalid Ihsan Publishers.
[48] Ibn Al-Qayyim, al-Jawziyyah (1997). Zaad al-Maa'd. Karachi, Nafees Academy.

الفصل الثالث

قلب الإنسان والعلاقة بين الأم والطفل

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿ (سورة النحل: الآية 78)

إن فترة الأشهر التسعة التي يقضيها الطفل في رخم أمه هي فترة مهمة من حياته. يذكر العلامة ابن القيم الجوزية خمسة أنواع مختلفة من العلاقات بين الروح والجسد، إحداها الفترة التي يكون فيها الطفل في رحم أمه. وأنواع الروابط الخمسة بين الروح والجسد هي:

1- رابطة في رحم الأم، لأن هناك روحاً في الطفل الذي لم يولد بعد
2- رابطة ما بعد الولادة، وتبقى هذه الرابطة بين الروح والجسد حتى الموت
3- رابطة أثناء النوم، حيث يوجد انفصال جزئي للروح عن الجسد
4- رابطة ما بعد الموت في البرزخ، لأنه مع خروج الروح من الجسد، يبقى بينهما ارتباط
5- رابطة الحياة الآخرة، بعد يوم القيامة، وستكون تلك أقوى رابطة بين الروح والجسد، إذ لن يحصل موت أو نوم أو أي تغيرات في الجسد بعد ذلك.[49]

في العقود القليلة الماضية، أجريت مجموعة واسعة من الأبحاث العلمية تتعلق بالعلاقة بين الأم الحامل والطفل الذي لم يولد بعد (المعروف في المصطلح العلمي بالجنين) الموجود في رحمها. عادة ما يكون قلب الشخص بحجم قبضة الشخص نفسه، ومع نمو الجسم، ينمو القلب بنفس معدل نمو القبضة. وبالتالي، فإن قلب الرضيع وقبضته يكونان بنفس الحجم تقريباً عند الولادة. ومع ذلك، فإن هذا التساوي في الرحم ليس صحيحاً دائماً. فخلال الأسابيع القليلة الأولى من الحمل، يحتل قلب الجنين معظم جزئه الأوسط. فتكون نسبة حجم القلب إلى حجم الجسم أكبر بتسع مرات في الجنين منها في الرضيع.

---

[49] Ibn Al-Qayyim, al-Jawziyyah (1997). Kitaab ur-Rooh (in Urdu). Lahore, Shabbir Brothers.

ومن المعروف الآن أن قلب الجنين يتطور ويبدأ في الضخ قبل وقت طويل من ظهور الدماغ. والخلايا الأولى للجنين تكون حساسة للصوت، ومع أن الشيء الفعلي الذي يجعل خلايا قلب الجنين تبدأ بالنبض غير معروف، فمن المعتقد حسبما كتب الدكتور بول بيرسال (Paul Pearsall, Ph.D.) أن "طاقة قلب الأم المنقولة في الموجات الصوتية البدائية تحتوي على المعلومات التي تكون الشيفرة التي توقد فينا شعلة الحياة."[50] وبمجرد أن يبدأ القلب في النبض، فإنه يستمر في النبض حتى لو توقف الدماغ عن العمل في بعض الحالات، كحالة "موت الدماغ".

وبحلول الوقت الذي يبلغ فيه الجنين أربعة أسابيع ونصف في رحم الأم، تكتمل حاسة سمعه (الجهاز السمعي) ويصبح بإمكانه سماع الأصوات الصادرة عن جسم الأم. وأبرز صوت من جميع الأصوات التي يسمعها الطفل في رحم أمه هو الصوت الإيقاعي المستمر الصادر عن نبضات قلبها. وطالما تكون نبضات قلبها طبيعية ومنتظمة، فإنه يشعر بالأمان. ولقد كان ليستر سونتاغ، دكتوراه في الطب (Lester Sontag, M.D.)، أول من اكتشف في أربعينيات القرن العشرين أن نبضات قلب الأم تؤثر على نبضات قلب الجنين في الرحم.[51]

---

[50] Pearsall, Paul Ph.D. (1998). The Heart's Code. New York, Broadway Books.

[51] Bernard, J. & Sontag, L. (1947). Fetal Reactions to Sound. Journal of Genetic Psychology 70, 209-210.

الذاكرة اللاواعية لضربات قلب الأم لدى الطفل

إن الذاكرة اللاواعية لنبضات قلب الأم في الرحم تبقى في الطفل حتى بعد الولادة ولبقية حياته. وهناك عدة أدلة تدعم هذا الرأي.
ذكر الدكتور توماس فيرني (Thomas Verny, M.D)، دكتوراه في الطب، في كتابه "*الحياة السرية للطفل الذي لم يولد بعد* *The Secret Life of the Unborn Child*" أنه بسبب الذاكرة اللاواعية لنبضات قلب الأم، يشعر الطفل بعد الولادة بالطمأنينة عندما يتم تثبيته على صدر شخص ما، أو قد يشعر الشخص البالغ بالراحة عندما يذهب إلى النوم ويستمع إلى دقات الساعة الثابتة، وقد يكون هذا هو السبب أيضاً في أن العاملين في المكاتب نادراً ما تتشتت أذهانهم بسبب ضربات الآلات الكاتبة الإيقاعية أو الأشياء الأخرى المشابهة لها.[52] ويستخدم بعض الأشخاص الذين يعانون من الأرق (فقدان النوم) آلات صوتية تحاكي صوت ضربات القلب. وكذلك، فإن الموسيقى الأكثر تهدئةً عادة ما يكون إيقاعها حوالي 70 إلى 80 نغمة في الدقيقة، وهذا يشبه الإيقاع الطبيعي لضربات القلب. ومن أبرز سمات موسيقى الجاز (وهي نوع من الموسيقى الشائعة في العالم بأسره) هو إيقاعها النابض، فقرع الطبول فيها يشبه نبضات القلب. لذا فإن هذا النوع من الموسيقى يعود بالناس الذين يستمعون إليها إلى مرحلة وجودهم في الرحم. وقد تثير هذه الموسيقى في مستمعيها الذاكرة اللاواعية لنبضات قلب أمهاتهم، فيشعرون بالأمان النفسي.

من أجل استكشاف آثار الذاكرة اللاواعية لنبضات قلب الأم على الطفل بعد الولادة، قامت مجموعة من الباحثين بتشغيل شريط نبضات قلب إنسان في حضانة مليئة بأطفال حديثي الولادة في أيام معينة وقارنوه بالأطفال الذين كانوا في الحضانة في الأيام التي لم يشغلوا فيها شريط نبضات القلب. أراد الباحثون أن يتيقنوا من أنه لو كانت هناك أي تأثيرات عاطفية لصوت نبضات قلب الأم، فإنها ستظهر على الأطفال حديثي الولادة الذين تم تشغيل الشريط لهم. لكن نتائج تلك التجربة كانت مفاجئة. فقد اكتشف الباحثون أن أداء الأطفال الذين استمعوا إلى شريط نبضات القلب كان، ومن جميع النواحي، أفضل من أداء أطفال الحضانة في الأيام التي لم يشغل فيها الشريط. فقد تناول الأطفال الذين استمعوا لنبضات القلب طعاماً أكثر وناموا لفترات أطول وكان تنفسهم أفضل وقل بكاؤهم وقل مرضهم أيضاً.[53] وكان هذا كله يرجع إلى حقيقة أن هؤلاء الأطفال كانوا يشعرون أنهم في حماية أمهاتهم عندما كانوا يستمعون إلى صوت نبضات القلب.

---

[52] Verny, Thomas M.D. & John Kelley (1981). The Secret Life of the Unborn Child. New York, Dell Publishing Co., Inc.
[53] Ibid.

تأثير ضربات قلب الأم على الطفل أثناء الرضاع

أصبح من المعروف الآن أنه عندما تتطابق (تتزامن) موجات القلب وموجات الدماغ فإن جسمنا يعمل "بالقدرة المثالية".[54] وعلى نحو مماثل، عندما تتطابق ترددات موجات قلب الأم وقلب الطفل حديث الولادة، كما يقول جوزيف شيلتون بيرس (Joseph Chilton Pearce)، "فإن قلب الأم المتطور يوفر الترددات النموذجية التي يجب أن يمتلكها قلب الرضيع لنموه في الأشهر الأولى الحرجة بعد الولادة".[55] وإحدى الطرق التي تحدث بها هذه المطابقة بين موجات قلب الأم وقلب الطفل هي عندما ترضع الأم طفلها. عند الولادة، تكون حاسة السمع لدى الطفل عاملة بكامل طاقتها بينما لا يستطيع الأطفال رؤية الأشياء أو تمييزها من مسافة معينة، ويستغرق الأمر بضعة أسابيع حتى يتمكنوا من تمييز وجوه الأشخاص المختلفين. يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (سورة الملك: الآية 23)

ومن ثم، فإن ذكر "السمع" في القرآن الكريم يأتي أولاً لأن حاسة السمع تنشأ أولاً لدى الطفل. ثم يذكر القرآن البصر، وأخيراً يذكر ملكة الفهم لدى الرضيع (أي القلب، الفؤاد)، لأن الأمر يستغرق سنوات حتى يتمكن الطفل من تنمية الحس المعنوي بالصواب والخطأ. ينم لنا الكلام المذكور أعلاه عن مدى أهمية الرضاعة الطبيعية. فقد بدأت منذ حوالي خمسين عاماً، في موجة الحداثة، العديد من الأمهات في أوروبا وأمريكا في إرضاع أطفالهن بالزجاجة لأنهن كن يعتقدن أن الرضاعة الطبيعية مظهر من مظاهر التخلف. وحتى اليوم، يتم إرضاع حوالي 97٪ من الأطفال في الولايات المتحدة الأمريكية بالزجاجة. لكن البحوث بينت أن الأطفال الذين يرضعون رضاعة طبيعية أكثر ذكاء من الأطفال الذين يرضعون بالزجاجة. كما أن هناك عدداً لا يحصى من الفوائد الأخرى الواضحة تتفوق فيها الرضاعة الطبيعية على الرضاعة بالزجاجة.[56 و57]

---

[54] Childre, Doc & Martin, Howard (1999). The HeartMath Solution. New York, HarperSanFrancisco.
[55] Pearce, Joseph Chilton (2002). The Biology of Transcendence. Rochester, Vermont, Park Street Press.
[56] Blum, Deborah (1996). Is Mother's milk key to child's growth, future? Sacramento Bee July 8, A-1.
[57] Pearce, Joseph Chilton (1992). Evolution's End. New York, HarperSanFrancisco.

ولهذا السبب أشار القرآن الكريم (في الآية 14 من سورة لقمان) إلى أن الرضاعة الطبيعية للطفل تكون لمدة عامين تقريباً. وحتى اليونيسف (UNICEF) ومنظمة الصحة العالمية (WHO)، حسبما كتب جاك نيومان (Jack Newman) في مجلة سينتفك أميركان (Scientific American)، قد أدركتا الآن أهمية الأمر القرآني الذي جاء منذ أكثر من 1400 عام، لإرضاع الطفل لمدة سنتين على الأقل:

> "وعلى الرغم من أنها ليست القاعدة في معظم الثقافات الصناعية، إلا أن اليونيسف ومنظمة الصحة العالمية تنصحان بالرضاعة الطبيعية "لمدة عامين وأكثر". ففي الواقع، لا تصل استجابة الطفل المناعية إلى قوتها الكاملة حتى سن الخامسة أو نحو ذلك".[58]

إن حليب الأم يحتوي كمية من الأحماض الدهنية واللاكتوز والماء والأحماض الأمينية المناسبة للمعدة (للهضم) ولنمو الدماغ ونمو الجسم. كما أنه يحتوي على العديد من أنواع المناعات التي يحتاجها الطفل في وقت مبكر من حياته قبل أن ينضج جهازه المناعي. هذا بالإضافة إلى أن نسبة تركيز الدهون والبروتينات في حليب الإنسان تكون أقل من نسبة تركيزها في حليب الثدييات الأخرى. وهذا يجعل إرضاع طفل الإنسان ضرورياً كل حوالي عشرين دقيقة. ولو أخذنا حليب الأرانب على سبيل المثال، فإنه يحتوي على تركيز عال من الدهون والبروتين بحيث يكون إرضاع طفل الأرنب مرة واحدة في اليوم كافياً. وكذلك تكون عملية تكرار تغذية الصغير قليلة جداً لدى جميع الثدييات الأخرى. ومن الواضح أن هذا ليس هو الحال عند البشر. ولأن حليب البشر فقيراً بالعناصر الغذائية ويهضم بسرعة، فمن الضروري أن يكون للأم اتصال متكرر (عدة مرات في اليوم) مع الطفل من خلال الرضاعة الطبيعية. وإنها لحكمة بالغة من الله سبحانه وتعالى في أن تكون هناك حاجة لتكرار الإرضاع الطبيعي لأطفال البشر (مرات عديدة في اليوم)، إذ يكون الطفل أثناء الرضاعة الطبيعية قريباً من قلب أمه ويستمع إلى نبضات قلبها. وقد كتب جوزيف شيلتون بيرس: "عندما تحمل الأم رضيعها على الثدي الأيسر وتكون على اتصال مع قلبه المقابل لها، تنشط كتلة كبيرة من المدارك الخاملة في الأم، الأمر الذي يؤدي إلى تحولات دقيقة في وظائف الدماغ وتغييرات سلوكية دائمة." [59] وربما يكون هذا هو السبب في أن معظم الأمهات يضعن بدافع غريزي أطفالهن على ثديهن الأيسر حفاظاً على تقارب تلك القلوب.

---

58 Newman, Jack, M.D. (December 1995). How Breast Milk Protects Newborns. Scientific American.

59 Pearce, Joseph Chilton (1992). Evolution's End. New York Harper San Francisco.

يؤكد الدكتور جيمس و. بريسكوت (James W. Prescott, Ph.D.)، من معهد العلوم الإنسانية (Institute of Humanistic Sciences)، على أهمية الاتصال الجسدي الوثيق، بل وأفضل من ذلك، الاتصال الوثيق بين قلب الأم وقلب مولودها الجديد بما يأتي:

"فقط عند البشر نرى الوليد معزولاً عن أمه ونرى أن الأم لا ترضعه. ولقد اكتشفنا أن مثل هذه السلوكيات الشاذة التي تنتهك ملايين السنين من حيوية التطور وعلم النفس الحيوي قد فرضت ثمناً باهظاً على الصحة الجسدية والعاطفية والاجتماعية لحديث الولادة والرضيع والطفل والمراهق والبالغ - فسببت الاكتئاب وضعف التحكم في الدوافع والعنف وتعاطي المخدرات".[60]

ولقد ذكر القرآن الكريم خصيصاً مدة الحمل في الآية التالية (سورة لقمان: الآية 14):

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ۞

وبالإضافة إلى ذلك، يرفع القرآن الكريم الإحسان إلى الوالدين (وخاصة الأمهات) إلى المرتبة الثانية بعد عبادة الله:

وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۞

(سورة الاسراء: الآية 23)

وكذلك للإشادة بوضع الأمهات، قال النبي محمد ﷺ في أحد الأحاديث:

إن الله يوصيكم بأمهاتكم، ثم يوصيكم بأمهاتكم، ثم يوصيكم بأمهاتكم، ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب. (البخاري [61])

---

[60] Prescott, James W. (Spring 1997). Breastfeeding: Brain Nutrients in Brain Development for Human Love and Peace. Touch The Future Newsletter.

[61] Bukharee, Imam Abu Abdullah Mohammad bin Ismael (1981). Sahih Bukharee. Lahore, Khalid Ihsan.

الفصل الرابع

تأثير قلب الإنسان على الدماغ والعواطف

لا شك أن قلب الإنسان ودماغه كلاهما يمتلكان ذكاءً، لكن نوعي الذكاء هذين يختلفان عن بعضهما في عدة مجالات. فذكاء الدماغ وذكاء القلب يعملان بطرق مختلفة. فكل من العضوين يدرك الحقيقة بطريقة مختلفة عن الآخر. لذلك، سنبدأ أولاً بمناقشة الفروق بين ذكاءي العضوين وما ينتج عن تلك الفروق.

ذكاء القلب وذكاء الدماغ

يعمل دماغ الإنسان بطريقة خطية منطقية. وظائفه الأساسية هي تحليل المعلومات التي يحصل عليها من حواسنا وحفظها وتجزئتها ومقارنتها وفرزها. وبناءً على المعلومات والتجارب والذكريات السابقة، يفرز الدماغ الرسائل الواردة من حواسنا ويحولها إلى مفاهيم وأفكار وعواطف. وفي حين أن هذا النهج الذي ينهجه دماغنا ضروري لبقائنا على قيد الحياة، فإن لهذه المقدرة عيوباً كثيرة، إذ يمكن أن يبقى الدماغ متعلقاً بنمط ثابت. وهذا يعني أنه نظراً لوجود معلومات سابقة في الرأس (ولا يهم إن كانت هذه المعلومات تستند إلى الحقيقة أم لا)، فإن الدماغ يقارن دائماً المعلومات الجديدة بالنموذج القديم الذي لديه ويحدد دون وعي إن كانت المعلومات الجديدة تتطابق مع الأفكار والتصورات القديمة الموجودة لديه. وهذا هو السبب في أنه يصعب علينا تغيير عاداتنا ومفاهيمنا القديمة.[62]

كتب إيمانويل كانت (Emmanuel Kant) في كتابه " نقد العقل المحض *The Critique of Pure Reason*" أن العقل غير كاف تماماً لفهم جوهر الله. وهذا صحيح، لأن الله يقول عن نفسه في القرآن (سورة الشورى: الآية 11):

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ

وهذا يعني أن الدماغ يقارن دائما المعلومات الجديدة بالمعلومات الموجودة لديه سابقاً. وفي قضية فهم جوهر الله، ليس لدى الدماغ أي شيء يقارنه به لأن الله ليس كمثله شيء. لذلك، يصبح الدماغ عاجزا عن إدراك الله مباشرة. والطريقة الوحيدة التي يمكن للدماغ أن يدرك بها الله هي طريق المعرفة غير المباشرة - من خلال التأمل في مخلوقات الله. لذلك قال أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) العبارة الآتية عن إدراك الله:

العَجزُ عَن دَركِ الإِدراكِ إدراكُ

"سبحان الله الذي لم يعط مخلوقاته أي سبيل آخر للوصول إلى معرفته إلا عن طريق عجزهم ويأسهم من الوصول إلى هذا الهدف."[63]

---

[62] Childre, Doc & Martin, Howard (1999). The HeartMath Solution. New York, HarperSanFrancisco.

[63] Ghazali, Imam Abu Hamid (n.d.). Ihya Uloom ud Din. Karachi, Darul Isha'at.

أما ذكاء القلب فإنه يخترق أي إشكال أو التباس لا ضرورة له، وهو بذلك يشبه كثيراً شعاع مصباح يضيء الظلام ويسمح لك برؤية ما يهمك بالفعل. فذكاء القلب يعالج المعلومات الواردة بطريقة مختلفة أكثر مباشرة وسمتها الخطية أقل والفطرة فيها أكبر. وفي الحقيقة، هناك العديد من الأشياء في حياتنا لا يمكننا تفسيرها منطقياً. على سبيل المثال، يحب الآباء أطفالهم كثيرا لدرجة أنهم مستعدون دائماً للتضحية بحياتهم من أجل إنقاذ حياة أطفالهم حين يكونون في خطر. وهذا الحب لا يمكن تفسيره منطقياً. لكن القلب يمكن أن يفهم هذا الحب فالقلب يعالج المعلومات بطريقة أقل خطية وأكثر فطرية.

ويجب أن نتذكر أن القلب أثناء السجود يكون في موقع أعلى من الدماغ. ووفقا للحديث النبوي، فإن الإنسان أقرب ما يكون إلى الله أثناء السجود. ومن ثم، فإن وضعية السجود لله هي الحالة الحقيقية للإنسان. ولا بد أن الإمام مالك، الفقيه الكبير ومؤسس المذهب المالكي، كان يتحدث عن تفوق ذكاء القلب (النور؛ الحدس) على ذكاء الدماغ (كثرة المعلومات التي تعني قدرة الدماغ على معالجة البيانات) عندما وصف العلم الحقيقي على النحو التالي:

لَيسَ الْعِلْمُ كَثرَةُ الرِّوَايات وَلكِنَّ الْعِلْمَ نُورٌ قَذَفَهُ اللهُ بِقَلْبِ الْمُؤمِنْ

ما قصده الإمام مالك هنا هو أنه حتى لو كان الإنسان "موسوعة تمشي"، فإنه لا يملك علماً حقيقياً ما لم يكن يدرك مَن خَلَقهُ وخلق الكون كله، وما هو الهدف من خلقه. وهذا هو نوع الذكاء الذي أشار إليه الرومي في رائعته الشعرية "المثنوي" حين قال:

"الذكي يرى الخاتمة

بقلبه من البداية؛

والجاهل يراها

فقط عند النهاية.

(المثنوي، الجزء الثالث، 4129) [64]

[64] Rumi, Jalaluddin Mathnawi quoted in Helminski, Kabir (1999). The Knowing Heart: A Sufi Path of Transformation. Boston, Shambhala Publications.

ماهية الذكاء

يمكن أن يعمل الدماغ دون تدخل ذكاء القلب. ولكن في هذه الحالة، يكون الدماغ خالياً من أي نوع من الرحمة أو الذكاء العاطفي. وقد يحصل الأشخاص الذين يمتلكون قوى عقلية حادة على الفوائد الحياتية الدنيوية في هذا العالم حتى وإن كانوا عباقرة أشرار. ويشار أحيانا إلى هؤلاء الأشخاص الذين يمتلكون قوى عقلية حادة باسم "العقول المدبرة". ومع ذلك، فإن الأشخاص الذين لديهم قلب ذكي فقط (الذي يشار إليه في المصطلح القرآني باسم "قلب سليم") هم الذين يفوزون في الحياة الآخرة. قبل ثمانينيات القرن العشرين، كان يسود اعتقاد على نطاق واسع بأن هناك نوعاً واحداً فقط من الذكاء يتجسد بدماغنا ويمكن قياسه عن طريق اختبارات الذكاء (IQ). وفي عام 1983، أحدث هوارد غاردنر(Howard Gardner)، الباحث في جامعة هارفارد وعالم النفس التنموي، في كتابه "أطر العقل" (Frames of Mind) ثورة في مفهوم الذكاء بأكمله. فقد طرح فكرة وجود أنماط متعددة من الذكاء مثل اللغوي، والموسيقي، والرياضي المنطقي، والمكاني، والبدني الحركي، والشخصي الداخلي (الذي يتعامل مع معرفة المرء لذاته)، والشخصي الخارجي (الذي يتعامل مع معرفة الآخرين).[65] فجاءت نظرية غاردنر في أنماط الذكاءات المتعددة متناقضة تناقضاً صارخاً مع النظرة العلمية السائدة التي ترى الذكاء ملكة عقلية شاملة واحدة. فالدكتور غاردنر يعتقد أن كل شخص يمتلك مزيجاً من تلك الأنماط السبعة من الذكاء، ويتم تجاهل معظمها في نظامنا التعليمي. ومن ثم، فإن الذكاء أكثر تعقيدا بكثير مما يوحي به تصنيف اختبارات الذكاء (IQ). إذ أن تصنيف اختبارات الذكاء يقيس فقط مظاهر الذكاء، أي الذكاء المنطقي الرياضي والذكاء اللغوي. ونتيجة لبحث غاردنر، بدأ كثيرون يعيدون النظر في تعريفهم للذكاء. وأصبح في الوقت الحاضر، يتزايد الاعتراف بين المعلمين وعلماء الأعصاب وعلماء النفس وغيرهم بأن البشر يمتلكون مجموعة من الإمكانات والقدرات التي لا يمكن تحديد مقدارها بسهولة.

في عام 1996، قدم دانيال غولمان (Daniel Goleman) نظرة أكثر شمولية للذكاء في كتابه الشهير الذكاء العاطفي (Emotional Intelligence) مستنداً إلى أبحاثه الخاصة بالإضافة إلى أبحاث العديد من العلماء الآخرين.

---

[65] Gardner, Howard (1985). Frames of Mind: The Theory of Multiple Intelligences. New York, Basic Books.

طرح غولمان فكرة أن النجاح في حياتنا يعتمد على القدرة على إدارة عواطفنا وليس على استخدامنا لقدراتنا العقلية فحسب. وأوضح من خلال البحث أن العديد من الناس يحصلون على معدل مرتفع جداً في اختبار مقدار الذكاء IQ (وهو اختبار يقيس ذكاء الدماغ) ومع ذلك لا تزال حياتهم فاشلة. وعلى العكس من ذلك، فإن العديد من الأشخاص الذين لديهم معدل ذكاء عادي هم أكثر نجاحاً في حياتهم لمجرد أنهم أكثر ذكاءً عاطفياً.[66] وحسب جولمان، فإن مقاييس الذكاء غير كافية كمحددات لنجاح الفرد (أو سعادته) في المستقبل. ومع أن الذكاء العاطفي ليس شيئا يمكن قياس كميته الكاملة، إلا أن مساهمته في نجاح الفرد المحتمل لها الأهمية الأكبر.

وللقلب أهمية كبرى في تنظيم عواطفنا. وسنعطي المزيد من التفاصيل حول أثر القلب في ذلك في الفصل التالي. ومع من أن للقلب صلة مباشرة بالذكاء العاطفي، فهو ليس النوع الوحيد من الذكاء الذي يمتلكه القلب.

إن ذكاء القلب هو على الأرجح من النمط الإنساني، الذي يهتم بالآخرين أيضاً. أما ذكاء الدماغ فهو نمط أكثر أنانية، وجل اهتمامه ينصب على حياته الخاصة. وقد كتب بول بيرسال (Paul Pearsall) يقول:

> "الدماغ نفسه لا ينام نوماً تاماً أبداً، ولديه مستويات مختلفة من اليقظة، لكنه لا يتخلى أبداً عن سيطرته على الجسم.... الدماغ لديه رهاب الأخلاق"[67]

ويقول عالم النفس ميهالي تشيكجنت ميهالي (Mihaly Csikszentmihalyi) في كتابه "*الذات المتطورة The Evolving Self*" إن دماغنا يميل أكثر نحو التشاؤم ويتوقع دائماً حدوث ما هو أسوأ. وبذلك، يظل مستعداً لما هو غير متوقع.[68] وهذا الخوف والتشاؤم في دماغ الإنسان هو ما يستغله الشيطان عندما يرغب قلبنا أن يمضي في سبيل الله:

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ (سورة البقرة: الآية 268)

وكذلك، يستفيد الشيطان من مخاوف الدماغ الخفية، وبالتالي، يتسبب الدماغ بمرض نفسي للقلبَ أيضاً. ونتيجة لذلك، فإن كلاً من الدماغ الآثم والقلب الآثم سيعاقبان يوم القيامة كما هو مذكور في القرآن الكريم:

---

[66] Goleman, Daniel (1995). Emotional Intelligence. New York, Bantam Books.
[67] Pearsall, Paul Ph.D. (1998). The Heart's Code. New York, Broadway Books.
[68] Csikszentmihalyi, Mihaly (1993). The Evolving Self. New York, HarperCollins.

كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۞ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۞

(سورة العلق: الآية 15-16)

نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۞ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۞

(سورة الهمزة: الآية 6-7)

وهناك أنماط أخرى من الذكاء يرتبط بها قلبنا مباشرة هي الفطرة والبصيرة. وقد أدلى الدكتور محمد إقبال، الشاعر والفيلسوف والباحث الإسلامي الكبير، في كتابه "إعادة بناء الفكر الديني في الإسلام *Reconstruction of Religious Thought in Islam*" بالملاحظات الآتية عن القلب:

> "إن القلب نوع من الحدس الداخلي أو البصيرة التي - كما يقول الرومي - تتغذى على أشعة الشمس وتصلنا بجوانب الحقيقة، وليس بالجوانب المنفتحة على الإدراك الحسي. إنه، وفقا للقرآن، شيء "يبصر"، وتقاريره، إن فُسرت تفسيراً صحيحاً، لا تخطئ أبداً."[69]

[69] Iqbal, Sir Mohammad (Allama) (1994). The Reconstruction of Religious Thought in Islam. New Delhi, Kitaab Bhavan.

أربع طرق يتواصل بها القلب مع الدماغ

كان العلماء في الماضي يعتقدون أن الدماغ يمارس تأثيراً على القلب فحسب. لكن العلماء في معهد هارتماث (HeartMath) - وهو معهد غير ربحي في بولدر كريك في كاليفورنيا، متخصص في إجراء بحوث حول القلب البشري - اكتشفوا بعد سنوات من البحث أن القلب يتواصل مع الدماغ وبقية الجسم بأربع طرق مختلفة كما هو موضح في منشوراتهم "حل هارتماث *The HeartMath Solution*" و"علم القلب *"The Science of the Heart"*)[70، 71] وتتلخص هذه الطرق الأربع للتواصل بين القلب والدماغ بما يأتي:

1. التواصل العصبي (عبر الجهاز العصبي)

يحتوي القلب على أكثر من 40.000 خلية عصبية (نفس أنواع الخلايا في الدماغ) كما هو موضح في الفصل الأول من هذا الكتاب. وخلايا القلب العصبية تستشعر وتستجيب لأنواع مختلفة من العمليات الحيوية مثل معدل ضربات القلب، ومعلومات الضغط، والهرمونات وما إلى ذلك، وترسل تلك المعلومات إلى الدماغ من خلال المسارات العصبية الناقلة (الأعصاب التي تحمل المعلومات من القلب إلى الدماغ). وفي الدماغ، تُرسل المعلومات إلى مراكز الدماغ المختصة في التدبر واتخاذ القرارات.[72] وتعليقاً على الروابط العصبية بين القلب والدماغ، كتب الدكتور رولين مكراتي:

> "من اللافت للنظر، أننا بتنا نعرف الآن أن القلب يرسل حركة عصبية إلى الدماغ أكثر مما يرسل الدماغ إلى القلب".[73]

---

[70] Childre, Doc & Martin, Howard (1999). The HeartMath Solution. New York, HarperSanFrancisco.

[71] McCraty, R, Atkinson, M. & Tomasino, D. (2003). Science of the Heart: Exploring the Role of the Heart in Human Performance. Boulder Creek, California, Institute of HeartMath.

[72] Childre, Doc & Martin, Howard (1999). The HeartMath Solution. New York, HarperSanFrancisco.

[73] McCraty, Rollin, Ph.D. (2003). Heart-Brain Neurodynamics: The Making of Emotions. Boulder Creek, California, Institute of HeartMath.

2. التواصل الحيوي الكيميائي (عبر الهرمونات والناقلات العصبية)

الهرمون هو مادة كيميائية تنتج في أحد أجزاء الجسم، وتنقل عبر الدم إلى جزء أو عضو آخر من الجسم من أجل القيام بعمله. وقد اكتُشف، في أوائل ثمانينيات القرن العشرين، أن القلب يفرز هرموناً قوياً جداً يسمى عامل مُدِر الصوديوم الأذيني (ANF). وهذا الهرمون ينظم ضغط الدم واحتباس سوائل الجسم. كما يؤثر هذا الهرمون على الأوعية الدموية والكلى وحتى عل بعض أجزاء الدماغ. وعامل مُدِر الصوديوم الأذيني (ANF)، الذي يطلق عليه أيضاً اسم "هرمون التوازن"، يؤثر أيضا على المهاد والغدة النخامية في الجزء الحُوفي من دماغنا، وهو جزء من الدماغ معني بالذاكرة والتعلم والعواطف.[74]

في أجسامنا، نوعان من الأنظمة يقومان بالأفعال:

(i) نظام ودي (يدفعنا للإسراع بالقيام بعمل ما)

ii) نظام لا ودي (يدفعنا للتباطؤ من أجل الاسترخاء)

والتوازن بين هذين النظامين مهم من أجل الأداء الطبيعي للدماغ، والذي يحقق هذا التوازن هو عامل مُدِر الصوديوم الأذيني (ANF)، وهو الهرمون الذي يفرزه القلب.

3- التواصل الحيوي الفيزيائي (عبر موجات الضغط)

هناك طريقة أخرى يتواصل بها القلب مع الدماغ وبقية الجسم وذلك من خلال موجات الضغط المتولدة عندما يضخ القلب الدم إلى الجسم كله. وهذا التواصل يحصل مع كل نبضة قلب. وقد أجرى العلماء في معهد هارتماث (HeartMath) تجارب مختلفة واكتشفوا أنه عندما تصل موجة ضغط ضربات القلب، التي تنتقل عبر شرايين الدم، إلى الدماغ فإن النشاط الكهربائي للدماغ يتغير ويمكن تسجيله أيضاً.[75] إن القلب هو العضو الوحيد في الجسم الذي ينبض، وآثاره تصل إلى كل جزء من الجسم في كل لحظة. أي أن آثار نبض القلب تصل إلى الدماغ وإلى بقية أعضاء الجسم وإلى الشرايين والأوردة وإلى كل نسيج في الجسم.

---

74 Cantin, Marc & Genest, Jacques (1986). The Heart as an Endocrine Gland. Scientific American 254(2), 76-81.

75 Childre, Doc & Martin, Howard (1999). The HeartMath Solution. New York, HarperSanFrancisco.

4- التواصل بالطاقة (عبر المجالات الكهرومغناطيسية)

إن مجال القلب الكهرومغناطيسي أقوى بكثير من مجال الدماغ وبقية الجسم. وهو أقوى 5000 مرة من المجال الكهرومغناطيسي الذي يولده الدماغ،[76] إذ أن التردد الكهربائي الطبيعي للقلب هو 250 دورة في الثانية في حين أن النشاط الكهربائي للدماغ يتراوح بين 0 و30 دورة في الثانية. ومجال القلب ليس له تأثير على الدماغ والجسم فحسب، بل ويمكن قياسه أيضاً باستخدام أجهزة مثل أجهزة قياس المغناطيسية من مسافة تصل إلى عشرة أقدام. وبالإضافة إلى ذلك، أظهرت الأبحاث التي أجريت في معهد هارتماث (HeartMath) دليلاً على وجود تفاعل بين مجال القلب الكهرومغناطيسي والدماغ.[77]

---

[76] Pearsall, Paul Ph.D. (1998). The Heart's Code. New York, Broadway Books.
[77] Childre, Doc & Martin, Howard (1999). The HeartMath Solution. New York, HarperSanFrancisco.

أثر القلب في العواطف

كان العلماء في الماضي يعتقدون أن الدماغ هو مصدر العواطف التي نشعر بها كلها. لكن هذا الرأي بدأ يتغير الآن. فقد ثبت الآن أن عواطفنا أسرع بكثير من عملية تفكيرنا وأنها بسبب سرعتها الفائقة تتجاوز عملية التفكير الخطي للدماغ. ولما أن عمليات التفكير في الدماغ أبطأ بكثير من السرعة التي تظهر بها العواطف، فلا يمكن أن تكون العواطف ناتجة عن عملية التفكير الطبيعية في الدماغ. من هنا، وكما بين لا دو (LeDoux) في كتابه: "الدماغ العاطفي: الأسس الغامضة للحياة العاطفية" The Emotional Brain: The Mysterious Underpinnings of Emotional Life, ليس صحيحاً أن العواطف تنشأ في الدماغ.[78] إن اللوزة الدماغية - وهي مركز الدماغ - لها الأثر الأكبر في معالجة ذاكرتنا العاطفية. وقد أظهرت البحوث الحديثة أن القلب يؤثر على مركز الدماغ هذا،[79] مما يعني أن قلبنا يؤثر على عواطفنا لأن اللوزة الدماغية تؤثر تأثيراً مباشراً على قلبنا.

نشأت فكرة أن عقلنا وجسدنا كيانان مختلفان عندما صرّح رينيه ديكارت (Rene Descartes، 1596-1650 م)، عالم الرياضيات والفيلسوف الفرنسي، بعبارته "أنا أفكر، إذاً، أنا موجود". ومنذ ذلك الحين، ينظر الفلاسفة إلى العقل والجسد بصفتهما كيانين منفصلين، وهو مفهوم يعرف أيضاً باسم الثنائية الديكارتية. وقد تحدى أنطونيو داماسيو (Antonio Damasio)، رئيس قسم الأعصاب في جامعة أيوا (University of Iowa) والباحث البارز في وظائف الدماغ البشري، هذه الفرضية مؤخراً في كتابه "*خطأ ديكارت: العاطفة والعقل والدماغ البشري* Descartes' Error: Emotion, Reason and the Human Brain". أظهر داماسيو أن فصل علم النفس للعقل عن العاطفة أمر خاطئ وأن للعواطف أثراً أساسياً في صنع قرار الإنسان. وقد أظهر ذلك من خلال دراسات الحالة لدى المرضى (في مختبره الخاص وكذلك من خارجه) الذين تضررت مراكز تفسير العواطف في أدمغتهم بسبب الحوادث. فكان هؤلاء الأشخاص، مع ذاكرتهم المثالية وعدم وجود إعاقة جسدية، يفتقرون إلى القدرة على اتخاذ قرارات صحيحة.

---

[78] LeDoux, J. (1996). The Emotional Brain: The Mysterious Underpinnings of Emotional Life. New York, Simon and Schuster.

[79] Armour, J. Andrew, M.D., Ph.D. & Ardell, Jeffry L., Ph.D. ed. (1994). Neurocardiology. New York, Oxford University Press.

وبذلك أظهر داماسيو أن القرارات المنطقية ليست نتيجة للمنطق وحده وإنما تحتاج إلى دعم العواطف والمشاعر.[80]

علاوة على ذلك، بين باحثون أمثال كانديس بيرت (Candace Pert)، دكتوراه في الطب، مؤلف كتاب "جزيئات العواطف Molecules of Emotion" أنه ليست الكيمياء الحيوية في جسمنا هي فقط التي تؤثر في عواطفنا، بل إن عواطفنا أيضاً تؤثر في المواد الكيميائية الحيوية في أجسامنا. وبالتالي، فإن جسمنا بأكمله هو مصدر عواطفنا وأساسها الجزيئي الحيوي.[81] والعقل، في الواقع، يعمل "كنظام معقد لمطابقة النماذج" مع العواطف، والقلب هو ذو التأثير الأكبر على الدماغ في هذا المجال لأنه يولد باستمرار نماذج حيوية متناغمة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتغيرات الحالة العاطفية.[82]

---

80 Damasio, Antonio (1994). Descartes' Error: Emotion, Reason and the Human Brain. New York, Quill Publishers.

81 Pert, Candace, (Ph.D.) (1997). Molecules of Emotion. New York, Scribner.

82 McCraty, Rollin, Ph.D. (2003). Heart-Brain Neurodynamics: The Making of Emotions. Boulder Creek, California, Institute of HeartMath.

طبيعة البشر الثنائية وأهمية القلب

يتكون البشر من شيئين: (1) تراب، و(2) روح. وحياتنا كلها على هذه الأرض هي في الواقع قصة صراع بين كياننا المادي والروحي. وينتهي هذا الصراع بموتنا عندما تغادر الروح الجسد.
يذكر الله في مواضع مختلفة أن جسمنا مصنوع من تربة هذه الأرض. وعلى سبيل المثال:

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ

(سورة الروم: الآية 20)

ثم يرسل الله إلى هذا الكائن المادي ملاكاً ينفخ فيه الروح، كما ذكر في القرآن الكريم:

فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ

(سورة الحجر: الآية 29 وسورة ص: الآية 72)

هذه الروح الملائكية المنفوخة في البشر فريدة من نوعها في البشر ولا يشاركهم فيها مخلوقات حية أخرى على هذا الكوكب. والإشارة إلى طبيعة البشر الثنائية ترد في القرآن الكريم عندما يقول الله واصفاً خلق آدم:

قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ **(سورة ص: الآية 75)**

وهكذا، فإن جسم الإنسان مصنوع من مكونات هذا العالم ولكن الروح نفخها في جسده ملاك. لذلك، يحدث صراع داخل الإنسان بين الجسد والروح. فالبشر مزيج مثالي من عناصر ملائكية وعناصر بهيمية. ويمتلك جسد الإنسان رغبات مماثلة لرغبات الحيوانات بينما تسعى روحه جاهدة لتحقيق الرغبات السماوية. فغريزة العبادة هي رغبة روحية، في حين أن غرائز الجوع والعطش والجنس هي رغبات الجسد. وتعاليم الإسلام تريد منا أن نمتلك توازناً بين الروح والجسد. وهذا هو السبب في أن الإسلام ضد مذهب الرهبنة وكذلك ضد مذهب المتعة.

إن مكونات الغذاء كلها لجسمنا المادي تأتي من تربة هذه الأرض لأن كياننا المادي نشأ منها. لكن روحنا نفخها في جسدنا ملاك - كائن سماوي - لذلك، يجب أن يكون غذاؤها شيئاً من السماء. وفي الواقع، فإن غذاء روحنا هو وحي الله من السماء - القرآن - وهو كتاب الله. القرآن هو ربيع الحياة لروحنا. في مناقشة حول ثنائية الروح والجسد في طبيعة البشر، قال الدكتور إصرار أحمد، وهو عالم إسلامي معاصر وطبيب ومفسر للقرآن، ما يأتي:

"إن مصدر الإرادة البشرية وكذلك مركز النفس البشرية هو القلب. البشر لديهم كائن روحي وكائن مادي. الروح من الله وستعود إلى الله كما جاء في الآية القرآنية:

إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝

(سورة البقرة: الآية 156)

ومن ناحية أخرى، جاء جسدنا المادي من هذا العالم وإليه سيعود:

مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ۝

(سورة طه: الآية 55)

قلب الإنسان يقف كمرآة بين الكائنين. مثل القلب مثل زجاجة فيها مصباح موجودة داخل مشكاة، كما هو موضح في سورة النور (آية 35). صدرنا أو قفصنا الصدري يبدو مثل مشكاة، وقلبنا مثل زجاجة يتوهج بداخلها مصباح الروح. وروح الإنسان تريد أن تجذب القلب نحوها في حين تريد النفس أن يميل القلب نحوها. والقرار يعتمد على القلب. إذا مال القلب نحو النفس وتجاهل الروح، فإنه يؤدي إلى "ظلام على ظلام". وعلى العكس من ذلك، إذا تحول القلب نحو الروح، فإنه ينير نفسه وينير الإنسان كله. وقد تحققت المرحلة الأخيرة من تنوير الكيان كله في شخصية النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)".[83]

[83] Israr Ahmed, Dr. (2004). Falsafa Siam-o-Qiam-e-Ramadan (Urdu Lecture). Lahore, Anjuman Khuddamul Qur'an.

الفصل الخامس

أهمية تطهير القلب

"داوِ قلبك فإن حاجة الله عز وجل إلى العباد صلاح قلوبهم".
(وصية الحسن البصري لرجل)

يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۞
(سورة الشعراء: الآية 88 - 89)

القلب السليم خال من العلل والعيوب الروحية. مع أن "القلب" المقصود هنا هو القلب الروحي وليس القلب العضوي، إلا أن القلب الروحي يتركز في القلب العضوي والاثنان يرتبطان معاً. والقلب هو نقطة الوسط بين الجسد والروح. لذلك، يدور صراع دائم بين قوى الجسد وقوى الروح. إذا مال القلب أكثر نحو الرغبات العاطفية للجسد، فإنه في البداية يتغلف، ثم يقسو وفي النهاية يمرض. وعلى العكس من ذلك، إذا مال القلب أكثر نحو رغبات الروح، فإنه يبدأ بتلقي قوة روحية تقويه.

وفقا للقرآن، لدى الناس ثلاثة أنواع من القلوب (روحياً):

1. مؤمن (يؤمن بوحدانية الله) - شخص قلبه حي.
2. كافر (الذي لا يؤمن بالله) - شخص قلبه ميت.
3. منافق - شخص قلبه مريض.

وتجدر الإشارة إلى أن مرض النفاق الذي يعاني منه قلب المنافق هو ما يجعل المنافق أسوأ من الكافر حسب القرآن، لأن المنافق يحاول أن يخادع الله. من ناحية أخرى، هناك أمراض روحية مثل الحسد والنميمة والكبر وما إلى ذلك، يمكن أن تصيب قلب المؤمن. وهناك علاجات لهذه الأمراض الروحية سيتم بيانها لاحقا في هذا الفصل.

وينقل الشيخ ابن تيمية في كتابه "*أمراض القلوب وعلاجها*" عن علي بن أبي طالب، عن أنواع القلوب الروحية:

"القلوب أربعة: القلب الأجرد الذي ينير بسراج - وهذا هو قلب المؤمن، والقلب الأغلف - هذا هو قلب الكافر، والقلب المنكوس - هذا هو قلب المنافق، والقلب الذي له جاذبتان، وقت يُدعى فيه إلى الإيمان، ووقت يُدعى فيه إلى النفاق - هؤلاء ناس خلطوا بين الأعمال الصالحة والأعمال الشريرة".[84] **(ملاحظة)**

---

[84] Ibn Taymiyyah, Sheikhul-Islam (2003). Diseases of the Hearts and Their Cures. Birmingham, Daar us-Sunnah Publishers

ملاحظة المترجم: هو حديث شريف، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: فَقَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ أَزْهَرُ، وَذَلِكَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ، وَسِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ. وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ، فَذَلِكَ قَلْبُ الْكَافِرِ. وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ، وَذَلِكَ قَلْبُ الْمُنَافِقِ، عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ. وَقَلْبٌ مُصَفَّحٌ، وَذَلِكَ قَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ، فَمَثَلُ الْإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ يَمُدُّهَا مَاءٌ طَيِّبٌ، وَمَثَلُ النِّفَاقِ كَمَثَلِ الْقُرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالدَّمُ، فَأَيُّ الْمَادَّتَيْنِ غَلَبَتْ صَاحِبَتَهَا غَلَبَتْ عَلَيْهِ." (قال ابن كثير في التفسير: إسناده جيد ولم يخرجاه، وقال الشوكاني في الفتح القدير: إسناده جيد، وقال الألباني حديث موقوف صحيح)

أمراض القلب العضوية

من بين أهم أمراض القلب العضوية الرئيسة مرض الشريان التاجي الذي يؤدي إلى نوبة قلبية. وإذا مرض القلب، يؤدي إلى تدهور الجسم. ومرض الشريان التاجي هو أحد الأسباب الرئيسة للوفاة في الولايات المتحدة الأمريكية. فوفقاً للإحصاءات التي قدمها مركز مراقبة الأمراض (أتلانتا، جورجيا)، يموت حوالي مليون شخص كل عام بسبب أمراض القلب والأوعية الدموية (النوبة القلبية ومضاعفاتها). وهذا يعني أن شخصين يموتان كل ثانية في الولايات المتحدة بسبب النوبات القلبية.[85] عندما تنسد شرايين القلب (الشرايين التاجية) بسبب ترسب الكوليسترول، يقل تدفق الدم إليها. ونتيجة لذلك، تصبح كمية الأكسجين التي ترد إلى الشرايين التاجية غير كافية لتلبية متطلبات القلب فيؤدي ذلك إلى الإصابة بنوبة قلبية. وعلاج أمراض القلب يشمل استخدام الأدوية (لتحسين الدورة الدموية في القلب) ورأب الأوعية الدموية وجراحة المجازة التاجية (لاستبدال الشريان المسدود). بالإضافة إلى ذلك، من المهم أن يتجنب مرضى القلب عوامل الخطر على القلب، كالعادات الغذائية المضرة أو أسلوب الحياة غير الصحي.

أوصى النبي محمد ﷺ بأسلوب حياة إسلامي في تعاليمه. وإذا اتبعنا تلك الإرشادات، فمن المرجح ألا نعاني من أمراض القلب والأوعية الدموية. وقد أعطيت الصلوات أهمية قصوى في الإسلام. قال النبي محمد ﷺ في أحد الأحاديث:

أَذِيْبُوْا طعَامَكُمْ بِذِكْرِ اللهِ وَالصّلاةِ (رواه أبو نعيم)

ولهذا السبب رتبت الصلوات الخمس المفروضة بطريقة جُعِلت فيها الصلوات قصيرة في المواقيت التي تأتي عندما تكون المعدة فارغة [أي الفجر (قبل شروق الشمس) والعصر (بعد الظهر) والمغرب (بعد غروب الشمس مباشرة)]، أما الصلوات التي تكون بعد الوجبات [أي صلاة الظهر وصلاة العشاء] فإنها تكون أطول. وبالتالي فهي تمنح جسمنا المزيد من التمارين. وقد قال النبي ﷺ في تتمة الحديث الذي رواه أبو نعيم:

(أَذِيْبُوْا طعَامَكُمْ بِذِكْرِ اللهِ وَالصّلاةِ) ولا تَنامُوا عِليْه فتقْسُو قلوبُكم

ثم أوصى بتجنب الإكثار من التمارين وممارسة التمارين الصعبة بعد الوجبات مباشرة، فإن ذلك يسبب مضرة أيضاً.

---

[85] Athar, Shahid, M.D. (1995). Health Concerns for Believers: Contemporary Issues. Chicago, Kazi Publications, Inc.

يعلمنا الإسلام أن نلتزم بالاعتدال في عاداتنا الغذائية. ووفقاً للمعهد الوطني للصحة (NIH)، فإن أكثر من 80٪ من الأمراض في الولايات المتحدة مرتبطة بالنظام الغذائي. كان النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) يكره الإفراط في تناول الطعام، وعاش ببطن أخمص وتوفي ببطن أخمص. وفي إحدى المرات قال:
مَا ملأَ آدمِيٌّ وِعَاءً شَرّاً مِنْ بَطنِه، بِحسْبِ ابن آدمَ أُكُلاتٌ يُقِمْنَ صُلْبُهُ، فإِنْ كَانَ لا مَحالَةَ، فَثلُثٌ لطَعَامِهِ، وثُلُثٌ لِشرابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ. (رواه الترمذي)[86]

من المهم أن نعود أنفسنا على الاعتدال في عاداتنا الغذائية. فاستهلاك كميات صغيرة من الطعام يضمن رقة القلب، وقوة العقل، وتواضع الذات وضعف الشهوات. الأكل غير المعتدل يجلب علينا عكس هذه الصفات الحميدة. قال إبراهيم بن أدهم: "من ضبط بطنه ضبط دينه، ومن ملك جوعه ملك الأخلاق الصالحة. وإن معصية الله بعيدة من الجائع، قريبة من الشبعان." (جامع العلوم والحكم - 2/471)

يمكن أيضاً أن يكون لأمراض القلب الروحية تأثير سلبي على القلب العضوي، كما أن لعلاجها تأثير إيجابي عليه. وقد أظهرت التجارب المخبرية في معهد HeartMath أنه عندما يوجه أشخاص خضعوا لتجربة معينة تركيزهم على قلوبهم ويظهرون شعوراً قلبياً أساسياً مثل الحب أو الحنان أو الشكران، فإن تركيزهم هذا يغير إيقاعات قلوبهم على الفور. وعندما تنشط المشاعر الإيجابية مثل السعادة والعطف والحنان والشكران، يزداد إنتاج DHEA في الجسم (Dehidroepiandrosteron)، وهو هرمون يحارب الشيخوخة في أجسامنا. وعندما نعاني من أمراض القلب الروحية كالحسد والغضب والكراهية، فإننا، نتيجة لذلك، نعاني من الإجهاد. وأثناء الإجهاد، يقل إنتاج هرمون DHEA ويزداد إنتاج هرمون الإجهاد الكورتيزول (Cortisol)، وهذا يؤدي إلى الشيخوخة وقصر العمر.

ومن الأهمية بمكان أيضاً لصحة القلب الروحية والجسدية تناول الطعام الزكي (الطاهر). يخبرنا القرآن الكريم، في سورة الكهف، أنه عندما استيقظ نائمو الكهف (وهم مجموعة من خمسة إلى سبعة شبان أتقياء فروا من اضطهاد حاكم طاغية واختبأوا في كهف حيث جعلهم الله ينامون حوالي 300 عام)، أرسلوا بعد نومهم الطويل واحداً منهم إلى سوق البلدة القريب لشراء بعض الطعام، ونصحوه بالحصول على طعام وصفوه بقولهم "أَزْكَى طَعَامًا" (طعاماً طاهراً).

[86] Tirmidhi, Imam Abu Esa (1988). At-Tirmidhi. Lahore, Zia ul Ihsan Publishers.

فقد كان أولئك الذين ناموا في الكهف يعرفون أن تناول الطعام الطاهر الحلال مهم للقلب السليم. أما اليوم، فإن قلوب المسلمين تفسد جزئياً لأنهم ليسوا حذرين في اختيار الطعام الزكي. وبدلاً من تناول الطعام المنزلي المفعم بالبركة، باتوا يفضلون الوجبات السريعة، التي يقول عنها الشيخ حمزة يوسف، "مصنوعة على عَجَلٍ وتبذير، وهما صفتان من صفات الشيطان".[87] لذلك، من المهم أن نكون مدركين لضرورة زكاء الطعام الذي نتناوله من أجل صحة قلوبنا الجسدية والروحية.

[87] Yusuf, Hamza (2001). Agenda to Change Our Condition. Hayward, Zaytuna Institute.

قصة لقمان الحكيم وسيده

كان لقمان رجلاً حكيماً من قارة أفريقيا. وقد أثنى عليه القرآن لحكمته. كان لقمان في بداية حياته عبداً. وكان الرجل الذي اشتراه صالحاً وذكياً. واكتشف أن لقمان لم يكن عادياً فحاول اختبار ذكائه. وفي أحد الأيام، أمره أن يذبح شاةً ويحضر له أخبث ما فيها. فذبح لقمان الشاة وأحضر قلبها ولسانها إلى سيده. وعندها ابتسم السيد، مفتوناً باختيار لقمان لما هو "أخبث". فقد فهم أن لقمان يحاول أن يوصل له معنى عميقاً، لكنه لم يستطع أن يحدد ما هو هذا المعنى بالضبط.

وبعد بضعة أيام، أمره سيده بذبح شاة، ولكن هذه المرة طلب منه أن يحضر له أطيب ما فيها. ذبح لقمان الشاة، ومرة أخرى أحضر القلب واللسان، وهذا ما أثار دهشة سيده. فسأله كيف يمكن أن يكون القلب واللسان أطيب وأخبث عضوين. فأجاب لقمان الحكيم: "إن اللسان والقلب أطيب ما في الجسد إن طاب صاحبه. وإن كان صاحبه خبيثاً، فإن لسانه وقلبه هما أخبث ما فيه!" بعد ذلك، صار سيد لقمان يعامله باحترام كبير وأمر عائلته بعتقه بعد وفاته. فأعتقوه عندما توفي.

العبرة من هذه القصة هي أن قلبنا ولساننا يمكن أن يجعلانا صالحين أو طالحين. والأمر متروك لنا في كيفية استخدامهما.

أول عملية قلب مفتوح - تطهير الملائكة قلب النبي محمد ﷺ

عندما بلغ النبي محمد ﷺ الخامسة من العمر وقعت له حادثة مهمة. في ذلك الوقت، كان يعيش ﷺ مع مرضعته حليمة، وهي امرأة بدوية من قبيلة بني سعد. وقد أخافت تلك الحادثة حليمة إلى درجة جعلتها تقرر أن تأخذ الطفل (النبي محمد ﷺ) إلى والدته آمنة في مكة المكرمة.

وفيما يلي تفاصيل الحادثة كما وصفها صفي الرحمن مباركي في كتابه "الرحيق المختوم" (وهو سيرة النبي محمد ﷺ): "ثم، كما رواها أنس بن مالك في صحيح مسلم:

أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَاهُ جِبْرِيلُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ، وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ - يَعْنِي ظِئْرَهُ - فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ، قَالَ أَنَسٌ: وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ.[88]

وأضاف المؤرخ وكاتب السيرة الذاتية ابن سعد في كتابه "الطبقات الكبير" أن الماء الذي استخدمته الملائكة لغسل قلب النبي محمد ﷺ كان بارداً.[89]

عندما حصلت هذه المعجزة، لم يكن أحد يتخيل أن القلب يمكن إخراجه من الجسم بعد شق الصدر ثم إعادته إليه. أما اليوم فقد أصبحت جراحة القلب المفتوح عملية عادية. هذه الحادثة تدلنا أيضاً على علم النبي الذي يمكن أن يستشرف المستقبل حتى قرون قادمة. وقد أدلى الشيخ حمزة يوسف بتعليقات مثيرة جداً للاهتمام حول معجزة شق صدر النبي محمد ﷺ، حيث بين أن الملائكة كانت ضوءاً (نوراً). ونحن نعلم اليوم أن جراحة القلب تتم باستخدام ضوء الليزر. عندما نقطع الأوردة والشرايين التي تربط القلب بالجسم ونخرجه من الجسم، فإنه يستمر في النبض. واستمرار خلايا القلب بالنبض بعد فصلها عن الجسم يمكن أن يؤدي في النهاية إلى موتها. لذلك، نحتفظ بالقلب في ماء بارد ملحي (مالح) من أجل إبطاء عملية التمثيل الغذائي وإبقائه على قيد الحياة.

---

[88] Mubarakpuri, Safi ur Rehman (1996). The Sealed Nectar (in Urdu). Lahore, Al Maktabatul Salafiyya.

[89] Ibn Sa'd, Abu Abdullah Muhammad (n.d.). Kitab Al-Tabaqat Al-Kabir. New Delhi, Kitab Bhavan.

تاريخياً، كانت ماء زمزم قبل 1400 عام تتضمن محتوى ملحي أكثر مقارنة مع ما تحتويه اليوم. وقد أخرجت الملائكة قلب النبي محمد ﷺ بعد أن شقت صدره وغسلته بماء زمزم البارد الملحي ثم لأمته وأعادته إلى مكانه. وهذا يشبه كثيراً جراحة القلب في العصر الحديث.[90]

ذكر أنس بن مالك (رضي الله عنه)، الصحابي والخادم الشخصي للنبي ﷺ، في حديث أورده الحاكم (في كتاب أحاديث النبي محمد ﷺ)، أنه كان يرى أثر غرز في منتصف صدر النبي ﷺ. وقد اعتبر الحاكم هذا الحديث صحيحاً كما ذكر العلامة جلال الدين السيوطي في كتابه "الخصائص الكبرى".[91] وأثر تلك الغرز على صدر النبي محمد ﷺ كانت بسبب جراحة القلب التي أجرتها له ملائكة الله.

وقد كان الهدف من معجزة شق صدر النبي محمد ﷺ هو تطهير قلبه وجعله جاهزاً وقادراً على تلقي الوحي المباشر من الله في صورة قرآن:

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ۞

(سورة الشعراء: الآيات 192 - 194)

اختار الله قلب النبي محمد ﷺ من أجل نزول القرآن عليه مباشرة. فليس لقلب إنسان آخر القدرة على تلقي الوحي المباشر. كما حصلت معجزة تطهير قلبه لتمكين قلبه من رؤية أعظم آيات ربه خلال رحلته ﷺ ليلة الإسراء والمعراج إلى السماء كما وصفها القرآن الكريم:

مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ۞ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ۞

(سورة النجم: الآية 11 - 12)

---

[90] Yusuf, Hamza Al-Isra' wal Mi'raj (video speech; 2001). Hawyard, Alhambra Productions.

[91] Sayyuti, Imam Jalaluddin (2003). Al-Khasaais ul Kubraa. Lahore, Maktaba A'la Hadhrat.

قوة القلب الروحية

الخطوة الأولى باتجاه استقامتنا هي أن نتأمل في الغاية من خلقنا، وعلاقتنا بالله، وفي مساءلتنا أمام الله يوم الحساب وفي الطرق التي تمكننا من تقويم أنفسنا، وذلك باهتمامنا بقلوبنا. إن التذكر الدائم للموت يجعلنا نبغض مغريات هذه الحياة ويقلل من احتمال اتباعنا لشهواتنا التي تقودنا إلى معصية الله، وإن أطلقنا العنان لشهواتنا في هذه الدنيا، فمن المرجح أن تتأثر قلوبنا بها. وقد كتب الدكتور إقبال عن هذه الحالة في كتابه "*إعادة بناء الفكر الديني في الإسلام* *Reconstruction of Religious Thought in Islam*" ما يأتي:

> "في سعينا المستمر وراء المظاهر، ننسج نوعاً من الحجاب حول الذات الشاكرة التي تصبح بذلك غريبة عنا تماماً. فقط في لحظات التأمل العميق، عندما تكون النفس الفعّالة معطلة، نغرق في أنفسنا العميقة ونصل إلى جوهر الحدث".[92]

كذلك، ذكر ابن عطاء الله السكندري، الفقيه والعالم المصري الكبير، في كتابه "*الحكم العطائية*": "إن لم ننزعج عندما يفوتنا عمل صالح أو صلاة وإن لم نشعر بالخزي بعد عمل فيه معصية، فهي علامة على موت قلوبنا (الروحية)".[93]

وهذا لأنه كما تعتمد حياة أجسامنا على الطعام، فإن حياة قلبنا الروحي تعتمد على "الإيمان" (الإيمان بالله) والأعمال الصالحة والصلوات. وكما تضر أمراض الجسم بصحتنا وحياتنا، فإن أمراض القلب الروحية أيضاً تشكل خطرا على صحة القلب، وإن هي تركت دون علاج، قد تؤدي إلى موت القلب. وإن مشاعر الخزي والذنب في البشر لا توجد في نفس هذا المستوى في أي حيوان آخر. لذلك، فإن الشخص الذي لا يشعر بالخزي أو الذنب عندما يرتكب معصية، هو شخص قلبه ميت.

إن الهدف الأسمى من تطهير قلوبنا هو الوصول إلى مرحلة نحوز فيها على ما يسميه القرآن "قلب سليم". وهذا هو نوع القلب الذي أشار إليه جلال الدين الرومي في قوله:

إذا كان القلب في صحة وتطهر من ذنوبه
الرحمن في عرشه يهديه لأنه في يده.
(المثنوي، الجزء 1، 66-6565)[94]

---

[92] Iqbal, Sir Mohammad (Allama) (1994). The Reconstruction of Religious Thought in Islam. New Delhi, Kitaab Bhavan.

[93] Iskandari, Ibn Ata illah (1984). Al-Hikam ul Ataa'iyaah (urdu title: Ikmal-ush-Shiyam; translated by Khalil Ahmed Siharanpuri). Karachi, Idarah Islamiyaat.

[94] Rumi, Jalaluddin Mathnawi quoted in Helminski, Kabir (1999). The Knowing Heart: A Sufi Path of Transformation. Boston, Shambhala Publications.

قلوبنا تعرف الخطأ، وقد ورد حديث عن النبي محمد ﷺ رواه وابصة بن معبد رضي الله عنه وقد جاء إلى رسول الله، قال:

أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (جئت تسأل عن البر؟)، قلت: نعم، فقال: (استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك المفتون) (مسند أحمد بن حنبل والدارمي).[95]

وفي حديث آخر عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:
البرّ حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك، وكرهت أن يطلع عليه الناس.
(صحيح مسلم)[96]

إذاً، فالقلب ليس عضو مشاعر وإدراك فحسب، بل هو أيضاً عضو ضمير ووجدان قادر على التمييز بين الخطأ والصواب. وفي شرح الحديثين المذكورين أعلاه، يكتب ابن رجب الحنبلي في شرحه "*لأحاديث الأربعين النووية*" ما يفيد بأنه في الأمور التي لا يوجد بشأنها نص واضح في القرآن والسنة والإجماع ولا توجد لها أحكام شرعية إسلامية، يكون خيار المؤمن الوحيد هو الحصول على الهداية من قلبه لأن القلب يطمئن للحق ويستكين له ويهيج للإثم ومعصية الله.[97]
وقد ذكر القرآن الكريم أن الله قد ألهم قلوبنا الإحساس الخُلقي بالصواب والخطأ:

فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿ (سورة الشمس: الآية 8)

إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿ (سورة الإنسان: الآية 3)

وفي مناقشة حول تربية القلب، يقول كبير هيلمينسكي (Kabir Helminsk):
"القلب ليس تعبيراً مجازياً غامضاً عن مقدرة على الشعور لا تفسير لها. إن القلب قوة معرفية ذاتية تتجاوز العقل. إنه عضو الإدراك الذي يمكنه معرفة عالم الصفات الروحية. إن القلب هو الذي يستطيع أن يحب وأن يمتدح وأن يغفر، وهو الذي يستطيع أن يشعر بعظمة الله...

---

[95] Ibn Rajab, Hanbali (1995). Jaami Al-Uloom wal Hukam (Commentary on An-Nawawi's Forty Ahaadeth) (Urdu language). Lahore, Al-Faisal Publishers & Booksellers
[96] Muslim, Imam Abul Hussain Qasheeri (1981). Sahih Muslim. Lahore, Khalid Ihsan Publishers.
[97] Ibn Rajab, Hanbali (1995). Jaami Al-Uloom wal Hukam (Commentary on An-Nawawi's Forty Ahaadeth) (Urdu language). Lahore, Al-Faisal Publishers & Booksellers.

لكن قلب الإنسان تعرض في معظم الأحيان إلى الكثير من الظروف المفتعلة لدرجة أنه أصبح أداة منحرفة ومحرِّفة. ولكي يكون القلب أداة معرفية فعالة، فإنه يحتاج إلى تجديد. وتجديد القلب مهمة يجب أن تسترشد بمبادئ ذاتية. ونحن نمتلك الوسائل كي نقدم للعالم علم نفس حقيقي عن الإنسان، ومعرفة صحيحة عن النفس وتربية سليمة للقلب." [98]

نحن المسلمين لدينا القرآن ولدينا مثال عملي هو النبي محمد ﷺ يمكننا تقديمهما للعالم من أجل تربية القلب وتطهيره وإصلاحه.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝

(سورة يونس: الآية 57)

---

[95] Ibn Rajab, Hanbali (1995). Jaami Al-Uloom wal Hukam (Commentary on An-Nawawi's Forty Ahaadeth) (Urdu language). Lahore, Al-Faisal Publishers & Booksellers

[96] Muslim, Imam Abul Hussain Qasheeri (1981). Sahih Muslim. Lahore, Khalid Ihsan Publishers.

[97] Ibn Rajab, Hanbali (1995). Jaami Al-Uloom wal Hukam (Commentary on An-Nawawi's Forty Ahaadeth) (Urdu language). Lahore, Al-Faisal Publishers & Booksellars.

[98] Helminski, Kabir (1999). The Knowing Heart. Boston, Shambhala Publications

أهمية علم التزكية (التطهير)

الإسلام ليس مجرد دين بل هو منهاج حياة كامل. فأحكام الإسلام في "الفقه" تعالج النواحي الخارجية من حياتنا. وأوامر علم "التزكية" (علم تطهير القلوب) تعالج النواحي الداخلية من شخصيتنا. ولو نظرنا في القرآن نجد أن غاية الله من إرسال جميع الأنبياء إلى الناس والكتب التي أوحيت لهم كانت تزكية (تطهير) قلوب هؤلاء الناس. الصلاة التي أقامها النبي إبراهيم (عليه السلام) من أجل بعث النبي محمد ﷺ في أهل الجزيرة العربية تقول:

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝

(سورة البقرة: الآية 129)

قبل الله صلاة النبي إبراهيم وكشف عن الغاية من إرسال النبي محمد ﷺ في الآية الآتية:

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۝

(سورة البقرة: الآية 151)

وكذلك يعُد القرآن أن الغاية من نبوة النبي موسى (عليه السلام) هي أيضا التزكية:

اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۝ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ۝

(سورة النازعات: الآيات 17-19)

علاوة على ذلك، يخبرنا القرآن أن التزكية هي شرط ضروري كي يفلح الإنسان في الحياة الآخرة. وتشير هذه النقطة أيضا إلى أن الغاية الأساسية من إرسال الأنبياء إلى الناس وتنزيل الكتب كانت تزكية البشرية. يقول الله تعالى في القرآن الكريم: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝

(سورة الشمس: الآية 9-10)

وروي عن ابن عباس المفسر الكبير للقرآن الكريم وصحابي النبي محمد ﷺ أنه قال:

تَعَلَّمْنَا الإِيمَانَ ثُمَّ تَعَلَّمْنَا القُرآنَ [99]

المكان الذي ينمو فيه "الإيمان" هو القلب - وهو المكان الذي تحصل فيه التزكية (التطهير). تخبرنا دراسة التاريخ المبكر للإسلام أن قواعد علوم التفسير والحديث (أحاديث النبي محمد ﷺ) والفقه كانت موجودة في زمن النبي محمد ﷺ وصحبه لكنها لم تجمع آنذاك، كذلك علم تزكية القلب كان موجوداً أيضا منذ بداية الإسلام. وفي زمن "التابعين" (السلف الصالح للصحابة)، جمعت قواعد كل تلك العلوم.

وقد أشار ابن خلدون، المؤرخ الإسلامي، في مقدمته، إلى أنه في الأجيال الثلاثة الأولى من الإسلام، كانت العلوم الروحانية الإسلامية عامة بحيث لا يمكن تسميتها باسم محدد. ومع ذلك، عندما ساد حب الدنيا وازداد انشغال الناس في السعي إلى أمور الحياة المادية، كرست مجموعة من الناس نفسها لعبادة الله وتميزت عن أولئك الماديين. [100]

كان كل العلماء الكبار خلال المراحل الأولى من الإسلام على دراية بعلم تزكية القلوب، وقد كتب العديد منهم كتباً حول هذا الموضوع. وفيما يأتي، على سبيل المثال، بعض أسماء علماء الإسلام الذين ألفوا كتباً في علم تزكية القلب:

- الإمام عبد الله بن المبارك (118 - 181 هـ) - كتاب الزهد
- الإمام أحمد بن حنبل (164 - 241 هـ) - كتاب الزهد
- الإمام الحارث بن أسد المحاسبي (165 - 243 هـ) - كتاب الزهد
- الإمام أبو حامد الغزالي (450 - 505 هـ، 1050 - 1111 م) - إحياء علوم الدين
- الإمام ابن تيمية (661 - 728 هـ) - أمراض القلوب وشفاؤها، مقالة يمكن إيجادها في كتابه متعدد الأجزاء فتاوى الإمام ابن تيمية
- ابن القيم الجوزية (691 - 751 هـ) - مدارج السالكين
- عبد الرحمن ابن الجوزي (511 - 597 هـ) - منهاج القاصدين
- شاه ولي الله الدهلوي - حجة الله البالغة
- الشيخ عبد القادر الجيلاني (470 - 561 هـ) - غنية الطالبين
- أبو طالب المكي (متوفى عام 386 هـ) - قوة القلوب

---

[99] Tabari, Abu Ja'far Muhammad Ibn Jarir (1993). Jaami Al-Bayan Fi Ta'wil ayi'l Qur'an. Beirut, Dar al-Kutub al-'Ilmiyah.

[100] Ibn Khaldun, Abdur Rehman (1993). Muqadimmah Taarekh Ibn Khaldun. Lahore, Al-Faisel Publishers and Traders.

كان هؤلاء العلماء على دراية جيدة بعلم التزكية وكانوا في الوقت نفسه علماء كبار في أحاديث النبي محمد ﷺ ("محدثين"). كانوا أتباعاً حازمين لسنة النبي محمد ﷺ.

في وقت لاحق من التاريخ الإسلامي، تماما مثل أي مؤسسة إسلامية أخرى، شهدت مؤسسة الروحانية الإسلامية (علم التزكية أو "التصوف") تراجعاً. بعد ذلك بدأ بعض الناس يجعلون التصوف علماً باطنياً. فتسللت إليه الأفكار الهلنستية والفلسفات اليونانية تحت ستار الإسلام. وحاول بعضهم إثبات منزلة لبعض الأولياء تفوق منزلة الأنبياء من حيث المعرفة وأنهم معصومون. وأصبح المفهوم الوثني لوحدة الوجود، الذي نشأ بين الفلاسفة الأفلاطونيين الجدد في الإسكندرية، مادة إيمانية عندما دخل في التصوف.

لكن، في أوقات مختلفة من التاريخ الإسلامي، ظهر بعض العلماء الصالحين مثل الإمام ابن الجوزي، والإمام ابن تيمية، والإمام الغزالي، والشيخ عبد القادر الجيلاني، وشاه ولي الله وغيرهم، وقدموا للبشرية صورة واضحة وغير مشوهة عن الإسلام مبنية على القرآن وسنة النبي محمد ﷺ.

لم يحاول هؤلاء العلماء الصالحين أبداً أن يثبتوا أن علم التزكية علم باطني لم يعرفه سوى عدد قليل من صحابة النبي محمد ﷺ وانتقل لاحقا إلى قلة مختارة من كل جيل. بل كتب هؤلاء العلماء كتباً حول مواضيع الإسلام الروحانية وجعلوها متاحة للجميع. ففي الإسلام لا مكان للباطنية. والتراجع في مؤسسة الروحانية الإسلامية لا يبطل علم التزكية. ولا يزال بإمكاننا الاستفادة من الكتب التي كتبها علماؤنا الكبار (علماء السلف). فقد كانوا حقاً علماء نفس إسلاميون برعوا في علم الروحانية الإسلامية وعلم النفس الإسلامي. ويجدر بنا أن نتذكر النصيحة الشهيرة للشيخ جنيد البغدادي (الذي يعتبر من أعظم خبراء علم التزكية) عندما قال:

> إذا رأيتم الرجل يطير في الهواء ويمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تقيسوه على الأمر والنهي، فإذا وجدتموه ممتثلاً للأمر، منزجراً عند النهي، فهو من أولياء الله الصالحين، وهذه الفعلة الخارقة هي كرامة أظهرها الله على يده. وإن وجدتموه يخالف الأمر والنهي فاضربوا بكرامته عرض الحائط فإنه زنديق.... إِنَّهُ لَيْسَ بِوَلِيٍّ إِنَّهُ شَيْطَانٌ.

الفصل السادس

أمراض القلب الروحية وعلاجها

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ، قال:

"إنَّ الله لا ينْظُرُ إلى صُوَرِكمْ ولا إلى أَمْوَالِكمْ،
وَلَكن ينْظُرُ إلى قُلُوبِكمْ وأَعمَالِكمْ"

(صحيح مسلم)[101]

سوف نُسأل يوم القيامة عن أعمالنا. لذا، علينا أن نحمي أجسادنا من الخطايا. الشيطان لا يستطيع الوصول إلى الأفكار التي تحيك في قلوبنا. لكنه يستطيع الوسوسة في قلوبنا.

الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (سورة الناس: الآية 5)

وإذا كان القلب سليما روحياً، فإن وسوسة الشيطان تكون ضعيفة. أما إذا كان القلب ضعيفا روحيا، فإن وسوسة الشيطان تكون قوية جداً وفعالة. ومن أحد الأشياء المثيرة للاهتمام حول طبيعة الشيطان هو أنه يفتقر إلى الابتكار. فهو يستخدم نفس حيله القديمة على الناس باستمرار، ربما لأنه يعلم أن حيله تنجح معهم. وهو يستفيد من نقاط ضعف الناس ويتلاعب بها ليسبب المرض لقلوبهم. وكما تقول مريم جميلة عن الطبيعة البشرية:

> "إن شخصية الإنسان، واحتياجاته الحيوية والنفسية، وقدراته الجسدية والعقلية، والإغراءات التي تجعله يستسلم للشر، وسعيه الأبدي للقيم الأخلاقية والروحية التي تعطي الحياة البشرية معناها وهدفها وتميزه عن الحيوانات الدنيا، لم تتغير على الإطلاق منذ ظهور *الإنسان العاقل*!" [102]

---

[101] Muslim, Imam Abul Hussain Qasheeri (1981). Sahih Muslim. Lahore, Khalid Ihsan Publishers.

[102] Jameelah, Maryam (1981). The Generation Gap: Its Causes & Consequences. Lahore Mohammad Yusuf Khan & Sons.

وبسبب فقدان الشيطان للابتكار في التلاعب بالطبيعة البشرية ليسبب لها أمراض القلب، من السهل فهم الطرق التي يخدع بها البشر للوقوع في فخه. في هذا الفصل، سندرس بعض أهم أمراض القلب الروحية وسنقدم بعض الاقتراحات لعلاجها. وهنا تجدر الإشارة إلى أن ضخامة موضوع تزكية القلب، تحول دون إنصافه في هذا الكتاب. بمعنى آخر، ما يتم تقديمه في هذا الكتاب حول تزكية القلب هو غيض من فيض. وكما يقول الشاعر البنجابي المتصوف، سلطان محمد باهو:

"القلوب أعمق غوراً من الأنهار والمحيطات،
من ذا الذي يعرف كل أسرار القلوب."
(كلام سلطان باهو)

يقول الإمام الغزالي في كتابه *إحياء علوم الدين* إن كل عضو في جسمنا له وظيفة. وعندما يخفق العضو في أداء وظيفته أداءً صحيحاً، فهذا يعني أنه ليس سليماً. ووظيفة القلب هي معرفة خالقه وطلب رضا الله. فإذا أخفق في هذه الوظيفة، فهو معتل ومريض.[103]

يختزل العلامة ابن القيم أمراض القلوب إلى فئتين أساسيتين:

1. مرض الشبهات
2. مرض الشهوات

وقد ذكر القرآن علاجاً عاماً لهاتين الفئتين في سورة العصر. بالنسبة لأمراض الشبهات، يصف العلاج على النحو الآتي:

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ

ولأمراض الشهوات، يصف:

وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ

(سورة العصر: الآية 3)

ومن ثم، يمكن شفاء أمراض الشبهات الروحية بالإيمان بالحق. ويمكن علاج أمراض الشهوات الروحية بالتحلي بالصبر والتحكم في رغباتنا.

---

[103] Ghazaali, Imam Abu Hamid (n.d.). Ihya Uloom ud Din. Karachi, Darul Isha'at.

إن أمراض القلب، في بعض النواحي، أكثر خطورة وتدميرا وبشاعة من أمراض الجسم. والسبب هو أنها تؤثر على دين الشخص، فهي تدمر حياته في الآخرة، وهي الحياة الأبدية. وعلى النقيض من ذلك، فإن الأمراض الجسدية تضر فقط بجسم الشخص. في الواقع، وفي بعض الأحيان، يمكن أن تكون الأمراض الجسدية مفيدة لحياة الشخص في الآخرة لأن الله وعد بثواب كبير عن المصاعب التي يواجهها الشخص في هذا العالم. بالإضافة إلى ذلك، وفي بعض الأحيان أيضاً، يمكن أن تجعل الأمراض الجسدية الشخص صاغراً متذللاً يذكر الله أكثر مما كان يذكره عندما كان في صحة جيدة. وعلاوة على ذلك، فإن أمراض القلب ليست مدمرة فحسب، بل لا يمكن إدراكها بسهولة بالحواس لأنها خفية ويصعب التعرف عليها ودراستها. لذلك، فإن معظم الناس لا يهتمون كثيراً بتشخيصها وعلاجها.
وفيما يأتي بعض أمراض القلب الروحية وعلاجاتها.

حب الدنيا وكراهية الموت (الوهن)

مثلما يعاني العديد من المسلمين من بعض أمراض القلب الروحية، فإن الأمة الإسلامية تعاني أيضا من مرض حب الدنيا وكراهية الموت. وإذا نظرنا إلى "حب هذه الدنيا" نجد أن السبب الرئيس فيه هو الجشع، وأن مصدر "كراهية الموت" هو الخوف. وعندما ننظر إلى الأولويات في حياة العديد من المسلمين (وغير المسلمين) في الوقت الحاضر، فإن الأمر برمته يتلخص في الرغبة في تجميع الثروة، وهو أمر ذكره القرآن في سورة التكاثر على النحو الآتي:

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝

(سورة التكاثر)

الرغبة في جمع المال هي ثمرة عصر المادية. لقد نسي الناس تماما أنهم سيزورون القبور يوما ما لأن الرغبة في الاكتناز قد حرفتهم عن الصواب، لكننا عندما نموت، سنرى حقاً بعين اليقين النتيجة النهائية للاكتناز. وبتعبير أدق، فإن السبب في حالة المسلمين المروعة في الوقت الحاضر وتَعرُضهم للاستصغار أمام العالم كله هو أن قلوبهم، كما يقول النبي محمد ﷺ، تعاني من مرض "الوهن"، الذي يعني حب الدنيا (النزعة المادية) وكراهية الموت. في حديث عن ثوبان، أن رسول الله ﷺ قال:

"يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل يا رسول الله: وما الوهن؟ قال حب الدنيا وكراهية الموت"

(رواه أحمد وأبو داود واللفظ له)،[104،105] وقال الهيثمي في المجمع إسناد أحمد جيد.

---

[104] Abu Dawud, Imam Sulayman bin Ash'as Sajastani (1983). Sunan Abu Dawud. Lahore, Islamic Academy Urdu Bazaar.
[105] Ibn Hanbal, Ahmed (1949). al-Musnad. Egypt, Daarul Ma'arif.

يشمل حب الدنيا أشياء مثل الرغبة الشديدة في الحصول على المال والسلطة والمنصب والشهرة وهي التي تجعل القلب مريضاً. وفي حديث آخر، ورد أن النبي محمد ﷺ قال:

"مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ." (رواه الترمذي)

قد يجد المسلمون اليوم الراحة في تحميل المسؤولية عن حالتهم البائسة لغير المسلمين، لكن هذا ليس سوى جزء من المشكلة. علينا أن نتذكر أن الله هو الذي يهيمن على العالم كله، لا غيره. ويعطينا القرآن بوضوح الإجابة عن المعضلة التي يواجهها المسلمون اليوم حيث يقول:

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ۝

(سورة هود: الآية 117)

وكذلك يقول:

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ۝ (سورة العنكبوت: الآية 40)

من الذي أدخل التلفاز وقنوات الكيبل التلفزيوني وأطباق الأقمار الصناعية وأفلام هوليوود وبوليوود على مقاطع فيديو وأقراص فيديو رقمية وألعاب الفيديو والإنترنت وما إلى ذلك إلى منازل المسلمين؟ في الحقيقة، لم يجبر غير المسلمين المسلمين على استيراد أسلحة تدمير الروح هذه إلى منازلهم. لقد كان هذا خيار المسلمين أنفسهم وكان لهم كامل الحرية في قبوله أو رفضه. لكن لسوء الحظ، اختار العديد من المسلمين عن وعي جلب هذه الأجهزة الشيطانية إلى منازلهم. والشيطان لا يجبر الناس على معصية الله. الشيطان لديه القدرة فقط على الوسوسة في قلب الإنسان. ولكن إذا لم يكن القلب سليماً، فلن يكون لديه القدرة على مقاومة إغراء الوسوسة. والمسلمون يريدون اليوم أن يمتعوا أنفسهم حتى الهلاك، على الرغم من أن النبي محمد ﷺ علمنا أن

كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل. [106].

[106] An-Nawawi, Imam (n.d.). Matan al-Arba'in. Kuala Lumpur, Islamic Book Trust.

إن شعار المذهب المادي هو السعي المستمر نحو أسلوب الحياة الأبيقوري لجسدنا (البحث عن المتعة). ولا يمكن أن يقدم أسلوب الحياة المادي شيئاً لتغذية نفس الإنسان وإراحتها. فإن التقطنا منشورات الدعاية عن المنتجات من أي متجر تسوق، فسنلاحظ أن هناك الملايين من الأشياء المعلن عنها لإضفاء السرور والمتعة على أجسادنا ولكننا لن نجد عنصرا واحدا لإسعاد روحنا. وهذا هو مرض العصر الحالي. كتب الشيخ حمزة يوسف، الذي رثى حالة المسلمين في الوقت الحاضر في كتابه " أجندة لتغيير حالتنا":

"الآن، كل مَن في بلاد المسلمين وقلوبهم عرضة لعدوان أعداء الإسلام الداخليين والخارجيين، الذين، لأول مرة في تاريخ البشرية، أقاموا تحالفا قويا تُسهّل فيه التقنية الخارجية الإفساد الداخلي للقلوب.
أقام هؤلاء الأعداء مدارس لغرس أفكارهم وأساليبهم في قلوب الشباب. لقد قوضوا السلطة الروحية لعلماء الإسلام، وجعلوهم يبدون أغبياء متخلفين حيث تضاءلت علومهم الدينية عن الكون أمام دعائم العلم الحديث والصناعة المثيرة للإعجاب...
رويداً رويداً، تغير لباس المسلمين - سقط الحجاب عن رؤوس نسائنا واختفت اللحى من وجوه رجالنا. في البداية استُبدِل الجلباب واللباس المحتشم بالقبعات ذات الحواف السخيفة والبدلات وربطات العنق وفي النهاية بالجينز والبلوزات، وهي ملابس تفوح منها رائحة الكفر وقلة الحياء، مما جعل المسلمين لا يظهرون خلفاء لله ولكن عبيداً مأجورين للمصانع الغربية المنتشرة في أنحاء العالم كلها. واستُبدِلت النعال، المحببة لنبي الله ﷺ، بأحذية نايكي (Nike) ذات اللصاقة الوثنية (*Swoosh*) لتذكير المتعلمين بالجذور الوثنية للثقافة التي يمكن أن تنتج مثل هذه الأحذية الشنيعة. يحتاج المرء فقط إلى إلقاء نظرة على الصور التي التقطها أوائل الأوروبيين الذين أتوا إلى بلاد الإسلام قبل مائة عام ليرى نبل اللباس الإسلامي". [107]

[107] Yusuf, Hamza (2001). Agenda to Change Our Condition. Hayward, Zaytuna Institute.

الكلام غير الضروري

تكشف لنا دراسة علم التشريح البشري أن اللسان هو أقوى عضلة في الجسم. وينبغي ألا يكون هذا مفاجئا لأن لسان الإنسان شيء قال عنه الإمام أبو حامد الغزالي:

"اللسان هبة عظيمة من الله، رغم صغرها جريمتها كبيرة ".[108]

قدرة البشر على التحدث والتعبير تميزهم عن الحيوانات الأخرى كلها.

خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝ (سورة الرحمن: الآية 3 و 4)

لا يوجد جنس آخر على هذا الكوكب لديه القدرة على جمع المقاطع الصوتية وجعلها كلاماً كما يفعل الإنسان. ونظرا لإمكاناته العظيمة، فإن لسان الإنسان لديه القدرة على صنع جنة من الجحيم وجحيم من الجنة. واللسان الحر يهلك صاحبه ويجلب له المصائب والشرور. فاللسان له كثير من صفات الخطيئة المهلكة، منها الغيبة، والنميمة، والكلام الفاحش والمضلل، والحديث ذو الوجهين، والنفاق، والتباهي، والشجار، والمشاحنات، والغناء، والكذب، والسخرية، والاستهزاء والباطل، وما إلى ذلك، وكل هذه الصفات يمكن أن تؤثر على القلب وتفسده.

أقل هذه الخطايا هو الكلام غير المفيد، وهو أصل كل هذه الأمراض المذكورة هنا. ورد في المسند عن أنس أن النبي ﷺ قال:

لا يستقيم إيمانُ عبدٍ حتى يستقيمَ قلبُه، ولا يستقيم قلبُه حتى يستقيم لسانُه.

(مسند أحمد بن حنبل)[109]

يروي الترمذي في حديث عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال:

لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله تعالى قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي. (الترمذي) [110]

وفي حديث آخر رواه أبو هريرة قال النبي محمد ﷺ:

إِنَّ أَكْثَرَ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ الْأَجْوَفَانِ: الْفَرْجُ وَالْفَمُ

(الترمذي)[111]

---

[108] Ghazaali, Imam Abu Hamid (n.d.). Ihya Uloom ud Din. Karachi, Darul Isha'at.
[109] Ibn Hanbal, Ahmed (1949). al-Musnad. Egypt, Daarul Ma'arif.
[110] Tirmidhi, Imam Abu Esa (1988). At-Tirmidhi. Lahore, Zia ul Ihsan Publishers.
[111] Ibid.

كما روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب. (صحيح البخاري) [112]

وعن أبي هريرة عن ابن عباس قال:

"بلغني أن العبد يوم القيامة ليس هو على شيء أحنق منه على لسانه، يعني لا يغضب على شيء من جوارحه أشد من غضبه على لسانه."

أقل أخطاء اللسان ضررا هو الخوض فيما لا يعنيه. ويكفي حديث النبي ﷺ للدلالة على ضرر هذه الخطيئة:

من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه. (الترمذي)[113]

القلب يتعب من الخوض في الأحاديث غير الضرورية والتافهة. فالحديث التافه، إن لم يُترك، يورد المرء في النهاية إلى المخاصمة والبذاءة والكذب والغيبة والاستهزاء، إلخ. وقد ورد في أحد الأحاديث أن النبي محمد ﷺ قال:

إذا أصبح ابنُ آدمَ؛ فإنَّ الأعضاءَ كلَّها تكفِّر اللسانَ، فتقول: اتقِ اللهَ فينا؛ فإنما نحن بك؛ فإن استقمت استقمْنا وإنِ اعوججتَ اعوججنا. (أخرجه الترمذي)

("تكفِّرُ اللِّسانَ"، أي: تخضَع وَتتذلَّل له)

وفقا للحكمة النبوية، يتسبب الكلام غير الضروري بمرض القلب. في الواقع، الكلام المفرط ليس ضارا بصحتنا الروحية فحسب، بل أيضا بصحتنا الجسدية. يقول جيمس جيه لينش (James J. Lynch)، دكتوراه في الطب، وهو باحث وعالم أمريكي، في كتابه "*لغة القلب: استجابة الجسم للحوار البشري*": بعد أكثر من 20 عاماً من البحث، وجدوا أنه عندما نتكلم، فإن التكلم يؤثر على أجسامنا بأكملها وخاصة نظام القلب والأوعية الدموية وأن ضغط الدم يرتفع.[114] وأنه ينخفض عندما نستمع.

.[112] Bukharee, Imam Abu Abdullah Mohammad bin Ismael (1981). Sahih Bukharee. Lahore, Khalid Ihsan.

[113] Tirmidhi, Imam Abu Esa (1988). At-Tirmidhi. Lahore, Zia ul Ihsan Publishers.

[114] Lynch, James J. (1985). The Language of the Heart: The Body's Response to Human Dialogue. New York, Basic Books, Inc.

قديماً، عندما كان الأطباء يقيسون ضغط دم المريض، كانوا يأخذونه في حالة صمت، وهذا الصمت كان يمنع الأطباء من اكتشاف أن ضغط الدم لدينا يزداد عندما نتحدث. أجرى الدكتور لينش Lynch وزملاؤه الباحثون اختبارات على أنواع مختلفة من الأشخاص من مختلف الفئات العمرية بما في ذلك أشخاص يعانون من فرط الحساسية وأشخاص أصحاء. ولخصوا دراستهم بالكلمات الآتية:

> "كانت النتائج هي نفسها. ارتفع ضغط الدم ومعدل ضربات القلب بسرعة كلما كان هؤلاء الأشخاص يتحدثون. وطلبنا من طلاب قراءة نص عادي بصوت مرتفع. فكان ضغط الدم ومعدل ضربات القلب تزداد لديهم بسرعة في كل مرة... وبالنسبة لأشخاص أمثال إد (Ed) الذين كانوا يعانون من ارتفاع ضغط الدم، كان الارتفاع الناجم عن التحدث عندهم أكبر بكثير من الأشخاص الأصحاء - ويصل غالبا إلى حد الخطر". [115]

إذاً، فإن الحديث غير الضروري ليس ضارا روحيا فحسب، بل يسبب أيضا ارتفاع ضغط الدم، وهو العامل الرئيس المتسبب في الإصابة بالنوبات القلبية.

---

[115] Lynch, James J. (Aug/1996). Why Listening is Good for You. Readers Digest, 122-124

الغيبة

الغيبة فعل آثم يسود العديد من مجتمعات العالم. والغيبة محرمة في القرآن والسنة. وهي تعني أن نتحدث عن شخص ما في غيابه بطريقة من شأنها أن تزعجه إن سمعها مهما كان ما نقوله صحيحاً. وإن كان ما نقوله لا يطابق الحقيقة، فإنه يسمى افتراء ("بهتان")، وهو إثم أكبر لأنه يجمع ما بين الكذب والغيبة. يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ۝

(سورة الحجرات: الآية 12)

شبَّهَ اللهُ، في هذه الآية من القرآن، الغيبة بأكل لحم الأخ الميت. فكما أن الشخص الميت غائب لا يستطيع الدفاع عن نفسه، فإن الشخص الذي نغتابه غائب أيضاً لا يمكنه الدفاع عن نفسه. وإن الغيبة أيضاً هي في الواقع طعن في شرف الشخص وسمعته. في حديث مذكور في صحيح مسلم وسنن أبي داود والترمذي، عندما سألت مجموعة من الصحابة النبي محمد ﷺ، عرفها بقوله:

"ذكرك أخاك بما يكره. قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته"، والبهتان إثم أكبر من الغيبة.

كثير من الناس يقعون في الغيبة نتيجة الإهمال أو عدم السيطرة على ألسنتهم أو لشعورهم بالملل فيقتلون الوقت بغيبة الناس. بعض الأمثلة على الغيبة هي أن نقول عن مسلم أو مسلمة عبارات كهذه: "إنه قصير"، "إنها وقحة"، "إنه يأكل كثيرا"، "بيتها غير مرتب"، "أهل زوجته مزعجون"، "ابنه وقح"، " زوجته تسيطر عليه"، "إنه سمين جدا"، إنها لا تجيد الطبخ "، الخ.

الغيبة السلبية هي أيضا *إثم* تماماً *كالغيبة الفعلية*. والغيبة السلبية تعني أن يغتاب الناس شخصاً في مكان ما ونحن نستمع إلى كلامهم ولا نمنعهم من ذلك ولو كان لدينا السلطة على منعهم أو أننا لا نغادر ذلك المكان.

قد يكون من المناسب هنا أن نروي طرفة تتعلق بموضوع الغيبة الذي نناقشه. "ذات مرة، دُعي عالم إسلامي إلى عشاء. وعلى طاولة العشاء، سمع اثنين يغتابان شخصاً. فقال لهما: أيها الإخوة! لقد أثار انتباهي أن معظم الناس يبدؤون عشاءهم بالخبز أما أنتما فقد بدأتما عشاءكما بلحمٍ! فقد كنتما تأكلان لحم أخيكما الميت قبل أن تبدآ عشاءكما اليوم".

من الأمور التي يجب أن نكون حذرين بشأنها عندما نريد أداء واجب "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" كي نتجنب أي نوع من أنواع الغيبة هو أن نتذكر الحديث التالي:

"المؤمن مرآة أخيه والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه"
(البخاري: الأدب المفرد، وسنن أبي داود) 116

عندما ينظر الشخص إلى نفسه في المرآة، لا تخفي المرآة عنه شيئاً بل تخبره بحقيقة شخصيته. المرآة لا تطري على الشخص الذي ينظر فيها ولا تحط من قدره. كما أن المرآة لا تحتفظ بصورة الشخص بعد أن يغادرها من أجل إظهارها للآخرين. وبعبارة أخرى، إن المرآة تظهر في حينها الوجه الحقيقي للشخص الذي يقف أمامها ولكنها لا تخبر الآخرين عن عيوبه. لذلك فإن أفضل طريقة لتجنب الغيبة هي أنه إن كانت لدينا شكاية شخصية من أحد ما، يجب أن نذهب ونتحدث إليه مباشرة بدلاً من التحدث عن ذلك إلى أشخاص آخرين.

[116] Bukharee, Imam Abu Abdullah Mohammad bin Ismael (1983). Al Adab Al Mufrad. Karachi, Nafees Academy.

فساد القلب بالسمع

هناك أساليب كثيرة يفسد بها القلب عن طريق السمع. وفي الحقيقة يصعب حماية سمعنا أكثر من بصرنا. يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (سورة الإسراء: الآية 36)

وحاسة السمع تذكر في القرآن الكريم قبل البصر. وهذا يدل على أهميتها كونها ذكرت أيضاً جنبا إلى جنب مع العقل في القرآن:

وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ

(سورة الملك: الآية 10)

ثم، وفي موضع آخر من القرآن، ترتبط حاسة السمع بالفهم أيضاً:

رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا

(سورة آل عمران: الآية 193)

كما توصف علاقة القلب بالسمع في القرآن بقوله تعالى:

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ

(سورة ق: الآية 37)

إذا نظرنا إلى حاسة السمع، نجد أنها دائرية على عكس حاسة البصر ذات الحركة الخطية. أي يمكننا أن نسمع من الاتجاهات كلها ولكن لا يمكننا أن نرى إلا ما هو أمامنا. فإن كان يحصل أمامنا فعل معصية، يمكننا إغلاق أعيننا أو إشاحة وجوهنا بسهولة شديدة ولكن كي نحمي آذاننا، علينا مغادرة هذا المكان بكليتنا. يذكر محمد عثمان نجاتي في كتابه "القرآن وعلم النفس" أن حاسة السمع يمكن أن تعمل في الظلام وفي النور بينما لا تستطيع العيون الرؤية في الظلام.[117] تستطيع العيون الرؤية فقط في وجود النور. كما أن حاسة السمع تبقى فعالة حتى عندما نكون نائمين بينما تتوقف حاسة البصر عن العمل عندما ننام.[118] إذ يمكن للصوت العالي أن يوقظ الشخص النائم (لهذا السبب، تصدر كاشفات الدخان عند نشوب حريق صوتاً عالياً وليس ضوءاً ساطعاً، حتى يتمكن النائمون من الاستيقاظ عند سماع صوت عال).

---

[117] Najati, Mohammad Usman (1999). Qur'an and Ilm un Nafs. Multan, Tayyib Academy.
[118] Ibid.

ويخبرنا الله سبحانه وتعالى في القرآن، في قصة أهل الكهف، أنه أبطل حاسة السمع لديهم حتى لا يقطع نومهم:

فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿ (سورة الكهف: الآية 11)

ومما تقدم يتضح أن حماية السمع من الآثام أصعب من حماية البصر. وكما قال جلال الدين الرومي، تكبر الحيوانات بتناول علفها بأفواهها وتكبر نفس الإنسان (الأنا أو الذات) بالسمع.[119]

علينا أن نحمي آذاننا من الاستماع إلى أحاديث الباطل ومن الموسيقى. فإن لم تكن الأذنان والعينان محميات، فإن الآثار الضارة للآثام تصل إلى القلب وتصيبه بالمرض. في القرن العشرين، وصل وباء الموسيقى إلى ذروته بسبب اختراع الآلات الموسيقية الإلكترونية واستخدامها تقريباً في أنواع وسائل الإعلام كلها. لقد انتشرت الموسيقى انتشاراً كبيراً فابتُلِيَ بها كل مسلم في العصر الحديث، إذ تشغل اليوم الموسيقى تقريباً في المتاجر الكبرى ومحلات السوبر ماركت كلها. ويستخدم أصحاب الأسواق أكثر الأغاني الموسيقية رواجاً لإغواء العملاء بالتسوق أكثر دون وعي. حتى أثناء المشي في الشوارع، نجد سيارات تضج بالموسيقى. وبأي اتجاه ذهبنا، تعصف بنا الموسيقى.

ورد أن ابن مسعود، صحابي النبي محمد ﷺ، قال، حسبما ذكر ابن القيم في كتابه "*إغاثة اللهفان*":

"الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع، والذكر ينبت الإيمان في القلب كما ينبت الماء الزرع" [120]

يخبرنا الله في القرآن كيف يستغل الشيطان حاسة السمع لدى البشر من أجل تضليلهم وحرفهم عن سبيل الحق:

وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿

(سورة الإسراء: الآية 64)

---

[119] Akhtar, Maulana Hakeem Mohammad (n.d.). Sermons on Divine Love (Muwa'iz dard-eMohabbat). Karachi, Kutab Khana Mazhari.

[120] Ibn Al-Qayyim, al-Jawziyyah (1993). Ighathatul Lahfan Min Masaa`id ash-Shaitaan, Dar AlBayan.

فسر بعض التابعين كالضحاك ومجاهد استفزاز الشيطان الناس بصوته أنه يكون باستخدام الموسيقى والغناء واللهو. قال الضحاك إنه صوت آلات النفخ.[121]
ويقول الله تعالى أيضاً:

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿ (سورة لقمان: الآية 6)

قال ابن مسعود، رضي الله عنه، في هذه الآية: "أقسم بالذي لا إله إلا هو أن المقصود هو الغناء"، وكرر ذلك ثلاث مرات. قال ابن عباس (رضي الله عنه)، ابن عم النبي محمد ﷺ، إنها تعني "الغناء وما شابهه"، بينما ورد أن جابر، رضي الله عنه، يرى أن معناها يدل على الغناء والاستماع إلى الأغاني. وكثير من التابعين مثل مجاهد وعكرمة ومكحول وعمر بن شعيب اعتبروه تقبيحاً للموسيقى والغناء.[122]
هناك حديث للنبي محمد ﷺ في صحيح البخاري، وهو أصدق كتب الحديث، يؤكد أيضاً عدم شرعية الموسيقى والغناء:

لَيَكونَنَّ مِن أُمَّتي أقْوامٌ، يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ والحَرِيرَ، والخَمْرَ والمَعازِفَ [123]

"معازف" تعني الآلات الموسيقية وأصواتها والغناء على أصواتها. (الحر: الزنا)
وهناك حديث آخر عن نبينا الحبيب محمد ﷺ حول هذا الموضوع:

ليشرين اناس من امتي الخمر يسمونها بغير اسمها ويضرب على رؤوسهم المعازف يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم قردة وخنازير

(سنن ابن ماجة)[124]

لقد فهم العلماء الكبار في أمتنا الإسلامية أهمية حماية السمع. فعلى سبيل المثال، كان الشيخ أنور شاه كشميري، المحدث الكبير والعالم الحنفي من القرن العشرين من الهند، قد وهبه الله ذاكرة فوتوغرافية (تصويرية تحتفظ بانطباعات حية). فكان كلما أراد الذهاب إلى السوق وضع في أذنيه سدادات حتى لا تصل أحاديث السوق العقيمة والموسيقى إليها وتلوث قلبه.

---

[121] Mustafa Al-Kanadi, Abu Bilal The Islamic Ruling on Music and Singing. Jeddah, AbulQasim Bookstore. (online version at: http://members.tripod.com/oum_abdulaziz/music.html)
[122] Ibid.
[123] Bukharee, Imam Abu Abdullah Mohammad bin Ismael (1981). Sahih Bukharee. Lahore, Khalid Ihsan.
[124] Ibn Majah, Imam Abu Abdullah (1990). Sunan Ibn Majah. Lahore, Islamic Academy Urdu Bazaar.

فرط النظر وغواية وسائل الإعلام

نحن مسؤولون عن صون أعيننا. يقول الله تعالى في القرآن:

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۞ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ۞ (سورة النور: الآية 30-31)

إن لم يغض المرء من بصره، فإن ذلك يؤدي به إلى الانجذاب إلى ما يراه، وانطباع صورته في قلبه. وهذا يمكن أن يؤدي إلى فساد قلبه. وقد ورد في مسند أحمد أن النبي ﷺ قال ذات مرة لأصحابه:

إِنَّ النَّظْرَةَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومٌ، مَنْ تَرَكَهَا من مَخَافَتِي أَبْدَلْتُهُ إِيمَانًا يَجِدُ حَلاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ. (مسند أحمد بن حنبل) [125]

يدخل الشيطان في جسد المرء مع النظرة، فيجعل ما يراه يبدو أجمل مما هو عليه في الحقيقة، ويحوله إلى وثن محبوب يعبده القلب. ثم يعده الشيطان بجوائز كاذبة، ويشعل نار الرغبة في داخله، ويغذيها بجمر الأفعال المحرمة التي لم يكن المرء ليرتكبها لو لم ير تلك الصورة المحرفة. في لغة الفنون الجميلة مصطلح يسمى "الإغواء"، وهو يعني الإغراء بالبعد عن الواجب أو الاستقامة أو العفة. وهذا هو بالضبط ما يفعله الشيطان. ومع ظهور وسائل الإعلام المطبوعة والتلفاز ووسائل الإعلام السينمائية وأجهزة الكمبيوتر، أصبحت مهمة الشيطان في إغواء الناس لتضليلهم وحرفهم عن الاستقامة والعفة سهلة للغاية. وفي الوقت نفسه، ازدادت صعوبة غض البصر في هذه البيئة.

وسائل الإعلام اليوم مذهلة. لديها مناظر خلابة مذهلة، ونظام صوت مجسم، وصور سريعة الحركة، تحاصر في داخلها الناس الذين يشاهدونها. وإن الغرض من وسائل الإعلام ليس إعلام الناس بل التأثير عليهم من خلال فن الإغواء. يمكن لكاميرات صناعة السينما في هوليوود أن تجعل كينغ كونغ مقاسه 18 بوصة يظهر وحشاً كبيراً يتسلق مباني ناطحات السحاب أو تجعل مبنى من طابقين في فيلم X-Files يبدو مبنى من 22 طابقاً أو تستخدم الشاشة الخضراء لتنتج المياه بمؤثرات الكمبيوتر الخاصة كما في كل مشاهد فيلم تيتانيك، ومن ثم، إغواء المشاهدين وخداعهم

[125] Ibn Hanbal, Ahmed (1949). al-Musnad. Egypt, Daarul Ma'arif.

في عصر المادية هذا، تعرض الصور المحرمة (التي يحظرها الإسلام) علناً على اللوحات الإعلانية والأفلام وفي الإعلانات وعلى الإنترنت. لذلك من المهم أن نحمي بصرنا من النظر إلى تلك الصور. وإلا فإن أثر تلك الصور المحرمة القاتل للأخلاق يمكن أن يصل إلى القلب عن طريق العينين ومن ثم يمكن أن يصيبه بالمرض. يمكن لهذه الصور أن تغير قلوبنا وتتلاعب بها لتنسجم مع رسالتها.

هناك اتصال فوري بين العين والقلب. وإن كانت العين فاسدة، فإن القلب يتبعها. يصبح ككومة قمامة تتجمع فيه كل الأقذار والأوساخ والعفن، فلا يبقى فيه مكان يقيم فيه حب الله. كما أن ترك البصر ينطلق بحرية على هواه يعمي القلب عن التمييز بين الحق والباطل. في حين أن غضه لوجه الله سبحانه وتعالى يمنحه بصيرة ثاقبة سليمة قادرة على التمييز.

الحسد

قال رسول الله ﷺ:
إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب
(سنن أبي داود) [126]

الحسد هو مرض يصيب القلب يرغب فيه الحاسد أن يرى النعم تزول عن المحسود، أي كأن يتمنى أن يفقد شخص ما وظيفته وثروته ومكانته الاجتماعية، إلخ. والحسد بلا شك هو واحد من أكثر المشاعر الإنسانية التي تأكل صاحبها. إن الحسد ظاهرة خطيرة بسبب انتشارها في الطبيعة البشرية والمجتمعات في جميع أنحاء العالم. وكان الحسد هو الأصل في مرض إبليس، فقد رفض إطاعة أمر الله بالسجود للنبي آدم (عليه السلام) بسبب حسده لآدم. وبهذا، كان الحسد أول مظهر من مظاهر الخطيئة في السماء. وأدى حسد إبليس للجنس البشري إلى طرد آدم وحواء من الجنة في نهاية المطاف. كما وقعت أول جريمة قتل في تاريخ البشرية بسبب الحسد. شعر قابيل ابن النبي آدم (عليه السلام) بالغيرة من أخيه هابيل وحسده على مكانته العالية عند الله وقبول تضحيته. ونتيجة لحسده، قتل أخاه هابيل. وكذلك، شعر إخوة النبي يوسف غير الأشقاء بالحسد من حب والدهم النبي يعقوب له، فأعماهم الحسد وحاكوا مؤامرة وأخذوا يوسف إلى الغابة (مدعين أمام والدهم أنهم ذاهبون للصيد)، وألقوه في بئر ثم أخبروا والدهم أن ذئبا أكل يوسف بينما كانوا منشغلين بالصيد في الغابة. ويذكر القرآن الكريم الطبيعة الهدامة للحسد بقوله تعالى:

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ **(سورة الفلق)**

يريدنا الشيطان أن نكفر بنعم الله وهو يحقق ذلك بجعل النفس تتمرد على صاحبها بسبب وضعه الحالي بالنظر إلى النعم التي منحها الله للآخرين. وهذا يخلق الشعور بالحسد عند المرء. وأسباب الحسد أو الغيرة كثيرة منها شعور الحاسد بالتفوق والكبر والعداوة والخوف وحب السلطة. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ:

---

[126] Abu Dawud, Imam Sulayman bin Ash'as Sajastani (1983). Sunan Abu Dawud. Lahore,Islamic Academy Urdu Bazaar.

"لا تَحاسدُوا، وَلا تناجشُوا، وَلا تَباغَضُوا، وَلا تَدابرُوا، وَلا يبِعْ بعْضُكُمْ عَلَى بيْعِ بعْضٍ، وكُونُوا عِبادَ اللَّه إِخْوانًا، المُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ: لا يَظلِمُه، وَلا يَحْقِرُهُ، وَلا يَخْذُلُه، التَّقْوَى هَاهُنا" - **ويُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مرَّاتٍ** - "بِحسْبِ امرئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِر أَخاهُ المُسْلِمَ، كُلّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حرامٌ: دمُهُ، ومالُهُ، وعِرْضُهُ" (رواه مسلم)[127]

كتب هيلموت شويك، عالم الاجتماع الألماني، كتاباً مفصلاً وشاملاً عن الحسد بعنوان: "الحسد: نظرية التطور الاجتماعي". ويعرف شويك الحسد بأنه "محرك يكمن في صميم حياة الإنسان ككائن اجتماعي... ويحثه على مقارنة نفسه مع الآخرين بحسد." [128] ويؤكد أن الحسد شعور متأصل في طبيعتنا، ويسوق مثالاً على ذلك تنافس الأشقاء بين الأطفال الصغار. ولأن الحسد حاضر دائماً، قوي عندما يثار ومدمر للغاية، فإن "قوة الإنجاز الحضارية" لدى مجتمع ما تعتمد على مدى سيطرته على الحسد. ولسوء الحظ، فإن قوى عديدة في عصرنا الحديث حسب رأي شويك تطلق الحرية للحسد فيقول ملاحظاً:

> "إن شيوع التبرير الذاتي للحسد هو شيء جديد تماماً. وبهذا المفهوم يمكن التحدث عن عصر الحسد.... فنحن نواجه تناقض مبادئ، وهو تناقض تتعذر التسوية معه: الحسد حالة شعورية معادية للمجتمع ومدمرة للغاية. لكنه في الوقت نفسه، هو الأكثر شيوعاً وشمولية في المجتمع.
>
> ولقد ذهب مجتمع القرن العشرين بعيداً في تحرير الإنسان الحسود، وفي رفع الحسد إلى مبدأ اجتماعي عويص، أكثر من أي مجتمع سابق منذ العصر البدائي، لأنه تبنى عدة أفكار مصدرها الحسد، وراح يغذيها بدقة حتى أثار بتلك الأفكار آمالاً كاذبة في مجتمع كان يخلو من الحسد تماماً. وفي القرن العشرين أيضاً، وللمرة الأولى، أثرت بعض المجتمعات ثراءً عززت من خلاله الوهم بأنها تستطيع تأمين سهولة شراء نوايا الحُسّاد الحسنة بأسعار أكثر ارتفاعاً من أي وقت مضى." [129]

---

[127] Muslim, Imam Abul Hussain Qasheeri (1981). Sahih Muslim. Lahore, Khalid Ihsan Publishers.
[128] Schoeck, Helmut (1969). Envy: A Theory of Social Behaviour. Indianapolis, Liberty Press.
[129] Ibid.

في عصر المادية الحالي، وبسبب تأثير صناعة الإعلان والرغبة في تحقيق أقصى قدر من الرفاهية، يحاول الناس التنافس مع بعضهم بعضاً للحصول على أكبر حصة من هذا العالم. ونتيجة لذلك، يشعرون بالغيرة من بعضهم. عالم الأعمال مثلاً، توجد فيه منافسة شرسة بين الرأسماليين. وهو أحد أنواع بيئة التحاسد التي تأكل فيها الأسماك الكبيرة الأسماك الصغيرة في البركة. كما أننا نلاحظ وجود الغيرة المهنية بين الأشخاص الذين يمتهنون نفس المهنة، وعلى سبيل المثال، بين الأطباء أو بين العلماء أو بين أشخاص في أي تخصص أكاديمي. صحيح أن الحسد موجود في الطبيعة البشرية ولكن الدين وحده لديه الحل والقدرة على التحكم في آثار الحسد المدمرة. الإسلام يبين بوضوح أنه إذا أردنا التنافس، يجب أن نتنافس فقط في إرضاء الله. عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:

"لا حَسَدَ إلَّا في اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ القُرْآنَ، فَهو يَتْلُوهُ آناءَ اللَّيْلِ، وآناءَ النَّهارِ، فَسَمِعَهُ جارٌ له، فقالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ ما أُوتِيَ فُلانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ ما يَعْمَلُ، ورَجُلٌ آتاهُ اللهُ مالًا فَهو يُهْلِكُهُ في الحَقِّ، فقالَ رَجُلٌ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ ما أُوتِيَ فُلانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ ما يَعْمَلُ". (صحيح البخاري)[130]

[130] Bukharee, Imam Abu Abdullah Mohammad bin Ismael (1981). Sahih Bukharee. Lahore, Khalid Ihsan.

الكبرياء (الكبر)

الكبرياء واحدة من أكثر أمراض القلب فتكاً، وتعرف أيضاً بالتكبر. وهي تنبع من الأنانية والمبالغة في تقدير المرء لذاته أو لقدراته أو مزاياه. أي أنها ادعاء جائر بامتلاك صفة ما. والمتكبر يفاخر ظلماً بحيازة قدراته ومزاياه التي هي في الحقيقة هبة منحه الله إياها. وهو يظهر فخره أيضاً باستصغار الآخرين. وقد استنكر الإسلام التكبر بشدة. وبين الله سبحانه وتعالى لنا أن الكبرياء صفة تخصه وحده. ففي حديث قدسي أورده صحيح مسلم أن الله قال:

الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما عذبته

(صحيح مسلم)[131]

كذلك يقول الله سبحانه وتعالى في سورة لقمان (الآية 18):

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝

وفي حديث صحيح رواه الإمامان مسلم والترمذي قال النبي ﷺ:

"لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر!" (صحيح مسلم والترمذي)

في كثير من الأحيان يجتمع الكبرياء والحسد معاً. فقد كان سبب طرد إبليس من الجنة هو تكبره وحسده للنبي آدم. جاء في القرآن الكريم:

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ۝ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ۝ (سورة الأعراف: الآية 12 - 13)

والسبب في أن فرعون لم يؤمن بالله بعد أن أظهر له النبي موسى آيات الله ومعجزاته هو كبرياؤه. فقد قال لأتباعه:

أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى" ۝ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ۝

(سورة النازعات: الآية 24 - 25)

---

[131] Muslim, Imam Abul Hussain Qasheeri (1981). Sahih Muslim. Lahore, Khalid Ihsan Publishers

يكون المتكبرون في حالة من الوهم عندما يعتقدون أنهم أفضل من الآخرين. فيعتقدون أن المزايا (كالذكاء والقوة والثروة) التي يمتلكونها ستبقى معهم إلى الأبد. ولا يدركون أن الله في المقام الأول هو الذي منحهم هذه الموهبة أو الثروة. ومرض التكبر يمكن أن يصيب الفرد كما يمكن أن يصيب الجماعة أيضاً. يقع بعض المسلمين في شرك الكبرياء الديني عندما يعتقدون أنهم متفوقون على أتباع الديانات الأخرى. ومثل هذا النوع من التكبر لدى بعض المسلمين يصبح عقبة كبرى في طريق الدعوة ونشر رسالة الإسلام لغير المسلمين لأننا لا يمكن أن نوجه الدعوة إلى شخص نكرهه ونعتقد أننا متفوقون عليه.

هناك نوع آخر من الكبر يسمى "العُجب" وهو حالة يعاني فيها الشخص من الإعجاب بالنفس وبما يملك من قدرات ومزايا. و "العُجب" ذاته، رذيلة مدمرة، تدمر الإيمان والأعمال وهي نتاج حب الذات أو "النرجسية". ومع ذلك، قد يقع العجب على كل من الأعمال الصالحة وعلى الأعمال السيئة معاً. فقد يعجب الشخص الصالح ويغتر بأعماله الصالحة. وكذلك، قد يشعر فاعل الشر بالفخر بأفعاله.

أفضل علاج لمرضي الكبر والعُجب هو تذكر الموت. كتب عالم النفس الأمريكي م. سكوت بيك (M. Scott Peck)، دكتوراه في علم النفس، في كتابه "أقل الطرقات سفراً (The Road Less Traveled)" عن الأشخاص النرجسيين (المتكبرين ومحبي الذات) أنه عندما يعاني هؤلاء الأشخاص من إخفاقات صغيرة في حياتهم، يتأذى فخرهم بأنفسهم وهو ما يسمى "الإصابة النرجسية" في علم النفس، وبأي مقياس، يكون الموت أخطر الإصابات النرجسية.[132] لذلك، فإن الإكثار من ذكر الموت يشكل ضربة قاسية لمشاعر الكبر والإعجاب بالنفس. ومن ناحية أخرى، يجب علينا تنمية مشاعر التواضع في ذواتنا وأن نذكر أنفسنا دائماً أننا عباد الله وعبيده وأننا ندين له في كينونتنا ووجودنا. عند فتح مكة، دخل النبي محمد ﷺ المدينة قائد لجيش قوامه 10000 شخص، وزاده الانتصار تواضعاً، فدخل مكة وهو يركب ناقته، وكان يطأطئ رأسه حتى لتكاد تمس رحله شكراً لربه تعالى. كذلك، صلاة الجماعة والحج هي أيضا برامج تدريبية تجعل المرء يدرك أنه ليس سوى عبد عادي من عباد الله كالآلاف والملايين من عبيده الآخرين الذين ينتمون إلى أعراق مختلفة وإلى شرائح مختلفة من المجتمع.

---

[132] Peck, M. Scott (1998). The Road Less Travelled. New York, Simon & Schuster.

يتحدث الشيخ حسن البنا (1906 - 1949م)، وهو عالم إسلامي ومؤسس جماعة "الإخوان المسلمين"، في مذكراته عن أحد أساتذته، الشيخ محمد أبو شوشة، خلال حياته الدراسية.

كان الشيخ أبو شوشة يأخذ طلابه (بمن فيهم حسن البنا) كل أسبوع إلى مقبرة ويذكرهم بأنه في يوم من الأيام سنعود جميعا إلى هنا. وفي بعض الأحيان، كان يطلب من أي من طلابه (بما في ذلك حسن البنا) أن يستلقي داخل القبر ويتخيل أنه مات وأن الناس قد دفنوه للتو في القبر. كان يخبر طلابه أن هذا هو مصيرهم وأنهم سيتركون وحدهم في ظلام القبر. وكان الشيخ أبو شوشة يبكي أثناء نصحه لطلابه، وهذا كان يدفع طلابه أيضاً إلى البكاء.[133] إن تأثرنا بمجرد قراءة الكتب أو سماع الحديث عن الموت لا تقارن بالمشاعر التي عاشها حسن البنا وزملاؤه في تلك اللحظات الرائعة. لقد كان يعرف أستاذ حسن البنا أن الإكثار من ذكر الموت هو العلاج للعديد من أمراض القلب الروحية. إن أمثال هذا النوع من المعلمين لهم بصمات كبيرة لا تمحى على شخصية الطلاب من حيث زرع مخافة الله والتواضع له فيهم.

[133] al-Banna, Hasan (n.d.). Diary of Hasan al-Banna. Chanarkot, Manshoorat-e Islami.

الغضب

الغضب هو سمة مركبة في طبيعة البشر أعطيت لهم وسيلةً للدفاع عن أنفسهم، ولكن إن لم تضبط ضبطاً صحيحاً، فإنها تصبح صفة مدمرة للغاية. قال رسول الله ﷺ:

إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ. (سنن أبي داود) [134]

إذا نظرنا إلى النار، نلاحظ أنها فوضوية بطبيعتها ويمكن أن تخرج عن السيطرة بسهولة بالغة. لكنها تبقى مفيدة لنا طالما أنها تحت سيطرتنا، وبمجرد خروجها عن سيطرتنا، تصبح مدمرة. ومن مزايا النار الأخرى هي أنها ترتفع باتجاه الأعلى على عكس الغبار الذي ينجذب نحو الأسفل، وبالتالي، فإن حالة البشر المثالية هي أن يكونوا متواضعين. وبما أن الشيطان خلق من النار، فهو متعال. لهذا السبب عندما يغضب المرء، يوقد الشيطان غضبه في كثير من الأحيان بإشعال غروره وكبريائه. ورد في حديث نبوي آخر:

إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب ... أَلَا وإِنَّ الغَضَبَ جَمرَةٌ فِي قلبِ ابنِ آدَمَ (الترمذي)[135]

أظهر البحث العلمي في معهد هارتماث (HeartMath) أنه عندما تثور المشاعر السلبية مثل الغضب والكراهية والحسد لدى الناس، فإنها تسبب زيادة في إنتاج الكورتيزول في أجسامنا، مما يؤدي إلى الإجهاد وزيادة ضغط الدم الذي يضر بصحتنا. [136]

في إحدى الدراسات، درس العلماء المشاركون في معهد هارتماث - الدكتور غلين رين Glen Rein وزملاؤه - تأثير الغضب على نظامنا المناعي. وقاموا في هذه الدراسة، بقياس تأثير نوبة غضب مستذكر واحدة مدتها خمس دقائق على الأجسام المضادة في النظام المناعي اللعابي - IgA، وعلى معدل ضربات القلب ومزاج ثلاثين شخصاً شاركوا في الدراسة على مدى ست ساعات قبل وبعد المرور في هذه الحالة العاطفية. فأظهرت الدراسة بوضوح شديد أن الغضب المستذكر لمدة خمس دقائق يمكن أن يضعف فعالية جهاز المناعة لدينا لأكثر من ست ساعات.

---

[134] Abu Dawud, Imam Sulayman bin Ash'as Sajastani (1983). Sunan Abu Dawud. Lahore, Islamic Academy Urdu Bazaar.
[135] Tirmidhi, Imam Abu Esa (1988). At-Tirmidhi. Lahore, Zia ul Ihsan Publishers.
[136] Childre, Doc & Martin, Howard (1999). The HeartMath Solution. New York, HarperSanFrancisco.

يتضح من ذلك أن الأمر يستغرق وقتا طويلاً حتى يعود جسمنا إلى التوازن عندما يثور الغضب. وإذا كان مجرد تذكر الشعور بالغضب يمكن أن يكون له مثل هذا التأثير الهائل على أجهزة الدفاع في أجسامنا، فلنا أن تخيل تأثير فورة غضب فعلية في حينها![137] في الواقع، تسبب مشاعر الغضب أضراراً كبيرة لأجسامنا وتؤدي في النهاية إلى أمراض مختلفة. إن الغضب ضار بمن يغضب وضار بالمجتمع أيضاً.

كان أنس بن مالك (رضي الله عنه) خادم النبي ﷺ في السنوات العشر الأخيرة من حياته. قال أنس: "خَدَمْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ سِنِينَ فَوَاللَّهِ مَا قَالَ لِي أُفٍّ قَطُّ وَلَا قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ لِمَ صَنَعْتَ كَذَا وَهَلَّا صَنَعْتَ كَذَا وَكَذَا". وحين كان يخطئ أنس كان يعرف ذلك من ابتسامة تعلو وجه النبي ﷺ. وقد وصف الله هذه الصفة العظيمة في النبي ﷺ بقوله تعالى في القرآن الكريم:

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ (سورة آل عمران: الآية 159)

وفي حديث:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوْصِنِي، قَالَ: لَا تَغْضَبْ. فَرَدَّدَ مِرَاراً؛ قَالَ: لَا تَغْضَبْ. (صحيح البخاري)[138]

نصحنا النبي ﷺ أن نغير مكاننا عند الغضب (أن ننتقل إلى غرفة أخرى، مثلاً)، أو نغير هيئتنا (نجلس إن كنا قائمين)، أو نشرب بعض الماء.

ويجب أن تذكر الحكمة القائلة: "لحظة صبر في لحظة غضب تمنع ألف لحظة ندم".

---

[137] Rein, Glen, PhD, Atkinson, Mike and McCraty, Rollin, MA (Summer 1995). "The Physiological and Psychological Effects of Compassion and Anger" Journal of Advancement in Medicine. Vol 8, No 2.

[138] Bukharee, Imam Abu Abdullah Mohammad bin Ismael (1981). Sahih Bukharee. Lahore, Khalid Ihsan.

البخل (الشح)

البخل أو الشح مرض قلبي روحي آخر. وقد علمنا نبينا الحبيب ﷺ أن نعوذ بالله من البخل.
البخل ينبع من الأنانية. وهذا يعني عدم الاهتمام والمبالاة بالآخرين. قال عنه النبي ﷺ:
اتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُم عَلَى أَن سَفَكُوا دِمَاءَهم، واستحَلُّوا مَحَارِمَهُم - (رواه مسلم) [139]

البخل مرض شنيع حتى أن البخلاء لا يحبون البخيل. وأفضل علاج لمرض البخل هو الإنفاق في سبيل الله. في الحقيقة، إن الإنفاق في سبيل الله هو علاج مختصر للعديد من أمراض القلب.

نقدم المزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع في فصل العلاجات العامة لأمراض القلب.

[139] Muslim, Imam Abul Hussain Qasheeri (1981). Sahih Muslim. Lahore, Khalid Ihsan Publishers.

الرياء

ينظر إلى التباهي على أنه "شرك خفي" في الإسلام. وهو دليل على رغبة في التفاخر والسعي للحصول على الثناء من الآخرين. إنه يسلب الصدق والجدية من عمل البر الذي يفعله المرء. فإن كان يكثر من المباهاة، تفقد أعماله أهميتها. وفي كثير من الأحيان يصل التباهي بصاحبه إلى النفاق. يروي أبو سعيد الخدري أن النبي محمد ﷺ قال:

"ألا أُخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال"؟ قالوا: بلى، قال: "الشِّرْكُ الخفيُّ، يقوم الرجل فيُصلِّي، فيُزيِّن صلاتَه؛ لِما يرى مِن نظرِ رجلٍ إليه" (مسند أحمد بن حنبل)[140]

قال رسول الله هذه الكلمات عن الرياء لأنه في حين أن خطر الدجل يقتصر على وقت محدد، فإن خطر الرياء يكون في كل الأوقات والأماكن ولأنه يكون خفياً في معظم الأوقات. إن الاستمتاع بالمديح والثناء ضعف بشري شائع بين الناس. وإن بحثنا في علم النفس نجد أن الأطفال يحبون التباهي ويحبون الثناء. ومن الصعب على كثير من الناس أن يتخلصوا منه عندما يكبرون.

كان العلماء والصالحون في التاريخ الإسلامي على وعي دائم بمرض القلب هذا، وكانوا دائماً يحاولون الابتعاد عن الشهرة بين الناس. لم يكن يعجبهم أن تذكر أسماؤهم كثيراً. وفيما يلي بعض الاقتباسات من علمائنا الصالحين حول التباهي والخوف من الشهرة: [141]

قال الصحابي **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه: *أيها الناس! كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدى، أحلاس البيوت، سرج الليل، جُدُد القلوب، خلقان الثياب، تعرفون في أهل السماء وتخفون في أهل الأرض.*

وقال **إبراهيم بن الأدهم**: *ما صدَقَ اللهَ عبدٌ أحبَّ الشُّهرة*

وكان **داود الطائي** يقول: فِرَّ مِنَ النَّاسِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الْأَسدِ.

الإمام أحمد: *"طوبى لمن أخملَ اللهُ ذكرَه"*، وكان يقول: *أشتهي ما لا يكون، أشتهي مكاناً لا يكون فيه أحد من الناس*

الفضيل بن عياض: *إن قدرت ألا تعرف فافعل وما عليك ألا تعرف، وما عليك ألا يثنى عليك، وما عليك أن تكون مذمومًا عند الناس إن كنت محمودًا عند الله.*

---

[140] Ibn Hanbal, Ahmed (1949). al-Musnad. Egypt, Daarul Ma'arif.

[141] Quoted from: fajr.wordpress.com/2008/10/27/the-fear-of-fame-a-lost-characteristic - Quotes taken from the book: -Anfas min Hadith al-Ikhlas by Dr. Sayyid al-'Affani (original sources include Tahdhib al- -Nubalaa, Tanbih al-Mughtarin and Sifat al-Safwah to name but a few)

وكتب **محمد بن العلاء بن المسيب** من البصرة إلى محمد يوسف الأصبهاني يقول: *يا أخي، من يحب الله يحب أن يبقى خفياً*

بشر بن الحارث: *ما أعلم أحد أحب أن يُعرف إلا ذهب دينه وافتضح*، وقال: *مَا اتَّقَى اللهَ مَنْ أَحَبَّ الشُّهْرَةَ*.

وقال (رحمه الله) أيضاً: *لا يجد حلاوةَ الآخرة رجل يحب في الدنيا أن يعرفه الناس*.

سفيان الثوري: *إن استطعت أن تكون عالماً لا يعرفك الناس فافعل، فإن الناس لو عرفوا ما فيك نفسك لأكلوا لحمك*.

قال **جلال الدين الرومي**: إن الحيوانات تسمن بتناول علفها وتكبر النفس (الأنا) بالسمع.[142]

ما قصده الرومي هو أن الأنا البشرية تتضخم من خلال الاستماع إلى مدحها.

إن أفضل علاج لمرض الرياء هو التحقق من "النية" قبل أي عمل. ونحن المؤمنين، يجب أن يكون هدفنا فقط إرضاء الله والسبب هو:

وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (سورة النجم: الآية 42)

[142] Akhtar, Maulana Hakeem Mohammad (n.d.). Sermons on Divine Love (Muwa'iz dard-eMohabbat). Karachi, Kutab Khana Mazhari.

علاجات عامة لأمراض القلب

نحن البشر خطّاؤون. في الواقع، وفقا لبعض العلماء المسلمين، إن كلمة "إنسان" مشتقة بالعربية من الفعل "نسي، ينسى، من" النسيان". وقد قال النبي محمد ﷺ:

كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون [143]

لا يفوت الأوان أبداً على الإصلاح والتوبة. والقلب الذي يتوب إلى الله يحبه الله:

مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ۝ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ۝ (سورة ق: الآية 33 - 34)

يقول مثل إنجليزي قديم: "الفرق الوحيد بين القديس والخطّاء هو أن للقديس ماضياً وللخطّاء مستقبلاً". باب التوبة مفتوح لا يغلق حتى موت الإنسان، أي إلى الوقت الذي يرى فيه ملك الموت. يجب ألا نماطل أبداً عندما يتعلق الأمر بتزكية قلوبنا. فمن يضمن العيش إلى الأبد؟ يجب أن نبادر من فورنا إلى "التزكية"، وإلا فلن يكون لنا مستقبل.

عندما نزكي أنفسنا، علينا أن نتذكر أيضاً أن الدماغ لديه قدرة هائلة على تسويغ الأمور. يحاول العقل بسرعة تسويغ مسألة تروق لرغبات النفس، وهي ظاهرة يمكن أن تخدع القلب. وبعبارة أخرى، فإن ما يحجب الفكر المتقلب يمكن أن يغشي مرآة القلب. كما كتب الدكتور سكوت بيك (Scott Peck)، عندما قتل قابيل (ابن النبي آدم) أخاه هابيل وسُئل عن فعلته، أجاب: لست أنا الحافظ لأخي! إذاً، كان يستخدم قوة دماغه لِيُسوّغ فعله الآثم.[144]

من السهل أن تختلط مشاعر الأنا بمشاعر القلب. ومن المؤكد أن الشيطان يستخدم قوة التسويغ عند الدماغ لإسكات صوت القلب الباحث عن الحقيقة. ولا بد أن العلامة إقبال كان يشير إلى هذه القدرة الهائلة للدماغ على التسويغ عندما قال في أحد أشعاره:

"قال جبريل لي في مقتبل العمر، لا تُقرَّ قلباً هو عبد للدماغ.
يحب الباطلُ الرياءَ، والحقُ واحدٌ، لا تُقرَّ تسوية بين حق وباطل"
(كليات إقبال)

---

[143] Tirmidhi, Imam Abu Esa (1988). At-Tirmidhi. Lahore, Zia ul Ihsan Publishers.
[144] Peck, M. Scott (1998). The Road Less Travelled. New York, Simon & Schuster.

أخبر الشيخ أشرف علي التهانوي تلاميذه ذات مرة أن إبليس لديه ثلاث صفات جيدة لكنه يفتقر إلى الرابعة، مما أدى إلى طرده من الجنة. إبليس "عابد" كبير و"عالم" كبير و"عارف" كبير. لكنه ليس "عاشقاً" صالحاً. لو كان إبليس محباً صادقاً لله، لأطاع حقاً أمر الله بالسجود لآدم دون أي تفكير.[145]

وهنا أود أن أقتبس من كتابي "إطلاق اللحية: في ضوء القرآن والسنة والعلم الحديث" العبارة التالية ذات الصلة بهذا الموضوع:

"بالإضافة إلى إطلاق لحيتنا، علينا أيضاً العمل على تزكية دواخل أنفسنا، أي تزكية قلوبنا. نحن بحاجة إلى ارتباط فكري وروحي بالإسلام. إن أحد الأسباب الرئيسة في أننا نرى وجوهاً بلا لحى بين المسلمين اليوم هو فقدان جانب الإسلام الروحي. إذ لا يمكن أن يكون لدينا قلب نقي يحتوي على شيئين متناقضين في آن واحد، أي حب الله ومخالفة رسوله ﷺ" [146]

من أجل الحفاظ على نقاء قلوبنا، علينا أن نتجنب الانغماس في أي شيء لا يتضح جوازه في التشريع الإسلامي. يجب أن نحاول تجنب الأشياء المريبة من أجل الحفاظ على صحة قلوبنا. قال نبينا الحبيب محمد ﷺ في حديثه المشهور:
إن الحلال بيّن والحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات فقد وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وأن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، إلا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب. (رواه البخاري ومسلم)

في حين يغيّب موتُ الجسد الإنسانَ عن هذا العالم، فإن موت القلب يؤدي إلى العقاب في الحياة الآخرة. قال أحد الصالحين ذات مرة: "كم هو غريب أن يحزن بعض الناس على من مات جسده، ولا يحزنون أبدا على من مات قلبه - مع أن موت القلب أسوأ بكثير!" فإن الطاعات ضرورية لسلامة القلب. وتشمل أعمال الطاعة الصلوات المفروضة والنوافل، وطلب العلوم الإسلامية والصوم، وهي أعمال من بين العديد من أعمال الفلاح. وعلاجاً لأمراض قلوبنا، شرع الإسلام عموماً ما يأتي:

---

[145] Akhtar, Maulana Hakeem Mohammad (n.d.). Virtues of Repentance (Tawbah). Karachi, Kutab Khana Mazhari
[146] Mushtaq, Gohar, Ph.D. (2003). Growing a Beard: In Light of the Qur'an, Sunnah and Modern Science. London, T-Ha Publishers Ltd.

1- الصلوات المفروضة - لعلاج مرض الغفلة
2- الانفاق في سبيل الله - لعلاج مرض حب الدنيا
3- الصوم - لعلاج مرض الرغبات الدنيوية (الشهوات)
4- حج بيت الله الحرام - علاج عام لكل الأمراض المذكورة [147]

إن الصلوات المفروضة خمس مرات في اليوم تجعل الإنسان تقياً. كما أنها تنطوي على ذكر الله. وقد جاء في القرآن الكريم:

أَلَا بِذِكرِ اللهِ تَطمَئِنُّ القُلوب ﴿ (سورة الرعد: الآية 28)

إن إحدى أفضل الطرق لتطهير قلوبنا وعلاج أمراضها الروحية هي الإنفاق في سبيل الله.

وأكبر فائدة من الإنفاق في سبيل الله هي أنه يربط قلب الإنسان بالله. فمن طبيعة البشر أن قلب الإنسان يميل دائماً إلى المكان الذي يضع فيه ثروته.

إن أودع شخص مبلغاً كبيراً من المال في المصرف، فإن قلبه ينجذب إلى المصرف. وإن أنفق ماله في سبيل الله، يميل قلبه إلى الله لأنه المكان الذي أودع فيه ماله. إن قلوبنا تتعلق بالمكان الذي تكون فيه ثروتنا.

وكما تمثل الصلوات علاقتنا بالله، كذلك يمثل الإنفاق في سبيل الله علاقتنا بمخلوقاته. لهذا السبب، تذكر الصلاة والزكاة معاً في القرآن. الصلاة دلالة على حبنا لله والزكاة دلالة على حبنا لعباده. علاوة على ذلك، تأتي كلمة "التقوى" في القرآن تقريبا دائماً جنبا إلى جنب مع الإنفاق في سبيل الله. وهذا يعني أن تزكية القلب لا يمكن تحقيقها دون الإنفاق في سبيل الله. عندما تصبح قلوبنا نقية من مرض حب المال ومرض البخل، يسهل علينا القيام بأعمال الخير. يقول الله سبحانه وتعالى:

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿
وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴿ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿
وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴿ (سورة الليل: الآيات: 5 - 11)

نلاحظ في القرآن أيضاً أنه كلما ذُكر موضوع الإنفاق في سبيل الله يُذكر ضده معه، أي الفائدة (الربا) أو الشح (البخل). وبمقارنته مع أضداده، يتضح مفهوم الإنفاق أكثر كما في القول المأثور:

تُعرَفُ الأَشيَاءُ بِأَضْدَادِهَا

[147] Islaahi, Amin Ahsan (2002). Tazkiyyah Nafs. Faisalabad, Malik Sons Publishers.

وللإنفاق في سبيل الله فائدة أخرى هي أن الله يمنح الحكمة للذين ينفقون في سبيله كما هو مذكور في القرآن:

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۞ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ۞ (سورة البقرة: الآيات: 268 - 269)

هذا الإنفاق في سبيل الله هو أكثر بكثير من "الزكاة" التي هي الصدقة المفروضة (2.5 ٪ من مال المسلم المقتدر في نهاية العام). وللأسف، عندما يطلب من معظم المسلمين أن ينفقوا في سبيل الله، فإنهم يجيبون بسعادة ورضا: "نعم! نحن ندفع الزكاة في نهاية العام!" في الواقع، دفع الزكاة أمر لا بد منه على كل مسلم مقتدر مالياً. ومن أجل تزكية قلوبنا، يجب أن نضحي بأكثر من الحد الأدنى المنصوص عليه في الشرع الإسلامي. وهذا الأمر هو أحد أسباب الحالة المهينة التي يكابدها المسلمون اليوم. فقد نجد مسلمين يقولون إنهم لم يتمكنوا من العثور على مسلم فقير يدفعوا له "الزكاة". لا بد أن أمثال هؤلاء المسلمين نائمين لأن غالبية اللاجئين في العالم (حوالي 80٪) هم من المسلمين.

ومن الأمثلة على الإنفاق في سبيل الله إطعام الفقراء (هناك دول إسلامية يموت فيها الأطفال من الجوع)، وتقديم المساعدة المالية لذوي القربى وغيرهم من الفقراء، ودعم بناء المساجد والمستشفيات والمؤسسات التعليمية الإسلامية.

في العصر الحالي، ينفق كثير من المسلمين أموالهم على تزيين منازلهم ورفع مستوى معيشتهم ليضاهوا أغنى أفراد المجتمع، وعندما يطلب منهم الإنفاق في سبيل الله، فإنهم يقدمون العذر: " آسف يا أخي، لم يتبق لدي كثير من المال لأنفقه في سبيل الله". والغريب في الأمر أنهم عندما ينفقون أموالهم لملء منازلهم بكل الكماليات والإلكترونيات المتوفرة في الأسواق، فإنهم لا يترددون لحظة ويؤمنون أن الشيء الوحيد الذي سنأخذه معنا بعد موتنا هو عملنا الصالح (الباقيات الصالحات). سنغادر جميعنا هذه الدنيا بأيد فارغة كما غادرها كل ملوك هذا العالم جميعهم عند موتهم. وحقاً، الشيء الوحيد الذي سنأخذه معنا هو أعمالنا الصالحة. (الباقيات الصالحات).

كان كبار العلماء والأئمة المسلمين يدركون جيداً أهمية الإنفاق في سبيل الله. ونقدم هنا مثالاً ساطعاً واحداً فقط من التاريخ الإسلامي لتوضيح هذه النقطة. يتعلق هذا المثال بالشيخ ابن تيمية (661-728 هـ)، الذي يعد من أعظم العلماء

في التاريخ الإسلامي. لقد عانى معارضة شرسة، وكلامه عن القلب مشهور جدا:
"ماذا يفعل أعدائي بي؟ أنا جنتي في قلبي، نفيي سياحة وحبسي خلوة وقتلي شهادة."

وذات مرة، أصدر الشيخ ابن تيمية فتوى شرعية في ثلاثة ألفاظ بالطلاق في جلسة واحدة على أنها تعادل طلقة واحدة فقط، على عكس رأي علماء الفقه في المذاهب الأربعة. ونتيجة لذلك، ألقي به في السجن، وفي "الفتاوي" أورد تعليقات جميلة عن تجربته في السجن:

"كنت أعيل بعض العائلات قبل أن أحبس، وعندما حبست، انقطعت المساعدة عن هذه العائلات الفقيرة. فتألمت كثيرا لذلك، وكانت تأتيني أخبار من هذه العائلات أثناء وجودي في السجن: "كنت تأتي إلينا نفسك بالذات، وتعطينا نفس المبلغ الذي كنت تعطينا إياه".
إذاً، إخواننا من الجن يتولون زمام الأمور ويقومون بما كنا نقوم به. إن خلت الأرض ممن يفعل الخير، يكن المؤمنون من الجن والملائكة مع المؤمن."

(مجموع الفتاوى لابن تيمية)

الفصل السابع

ملاحظات ختامية

يتكون البشر من جسد ونفس. ويمثل الجسد الجانب الأرضي للبشر بينما تمثل النفس الجانب السماوي. وقلب الإنسان هو المكان الذي يلتقي فيه الاثنان. أي يمكن القول إن القلب يعمل كنافذة بين الأرض والسماء. ويتضح من أقوال علماء الإسلام في الماضي أنهم اعتبروا القلب مقر النفس. ومن أجل النجاة في الحياة الآخرة، يجب تطهيره من العلل الروحية. ووفقاً للعلماء المسلمين، فإن "الذات" تتكون من النفس والعقل والقلب والروح، أي أنها تشكل كياناً نفسياً روحياً. وهذا يختلف عن نظرة علم النفس الحديث إلى الذات باعتبارها كياناً نفسياً فحسب تُختزل فيه أفعال الإنسان كلها في عمليات حيزية وكيميائية باستخدام النهج الاختزالي (Reductionism).

وقد استند مفهوم جسم الإنسان بوصفه آلة حيوية خالية من أي قيمة روحية إلى النظرة النيوتنية للكون التي ترى أنه يعمل وفق القوانين الحركية. والإسلام لا ينفي جوانب الذات الحيوية والكيميائية، بل يضيف لها بعداً آخر، البعد الروحي، "الروح" التي يخافها العلم الحديث كثيراً. وأسباب حساسية العلم الحديث تجاه الروحانية هي أن الفكر الداروينى، الذي يرى أننا جميعاً مجرد حيوانات، يكمن في أساس العلوم الاجتماعية كلها. كما أن فلسفة كارل ماركس Karl Marx وآدم سميث Adam Smith المادية وفلسفة سيغموند فرويد Sigmund Freud الإلحادية تمنح المزيد من الرعاية الفكرية للعلوم الاجتماعية الحديثة. وهنا لا بد أن نتذكر أن بعض كبار المفكرين والفلاسفة الغربيين أصيبوا بالجنون آخر حياتهم لأنهم اعتمدوا كثيراً على أدمغتهم وتجاهلوا قلوبهم حتى أنتجت، في النهاية، قلوبهم الميتة أدمغتهم المجنونة. فعلى سبيل المثال، الفيلسوف الفرنسي أوغست كونت August Comte (1798-1857 م) الذي يعد أبا علم الاجتماع الحديث، قد جُنَّ في السنوات الأخيرة من حياته. وكان آرثر شوبنهاور Arthur Schopenhauer (1788-1860 م) يصاب بجنون جزئي في فترات مختلفة طوال حياته. وفريدريك نيتشه Friederich Nietzsche (1844-1900 م)، الفيلسوف الألماني الذي صرح بأن "الله ميت"، جن جنوناً تاماً خلال السنوات العشر الأخيرة من حياته.

قام سيغموند فرويد Sigmund Freud (1856-1939) بمعظم اكتشافاته العلمية أثناء تعاطي الكوكايين، كما أظهرت لاحقا الباحثة البريطانية إي إم ثورنتون E.M.Thornton في كتابها الرائد والموثق جيداً: The Freudian Fallace: Freud and Cocaine "*مغالطات فرويد: فرويد والكوكايين*". [148]

أصيب فرويد بخيبة أمل كبيرة وهو على فراش الموت حتى أنه انتحر أخيراً بأن طلب من أطبائه إنهاء حياته عن طريق حقنه بجرعات زائدة من المورفين. نسيت تلك العقول الذكية خالقها، ولذلك، أُنسِيت أنفسها. كما جاء في القرآن:

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۞

(سورة الحشر: الآية 19)

فكرة أننا يمكن أن نفكر بقلوبنا لم تعد تعبيراً مجازياً، وإنما ظاهرة حقيقية. نحن نعرف هذا الآن لأن البحث المشترك في المجالات العلمية المختلفة يثبت أن القلب هو المركز الرئيس للذكاء لدى البشر، كما أوضح هذا الكتاب. يوجد حرفياً "دماغ صغير" داخل القلب ففي الحقيقة أكثر من ستين بالمائة من خلايا القلب تتكون من نفس المادة تماماً التي تتكون منها خلايا الدماغ (وهي خلايا عصبية، وليست خلايا عضلية كما كان يُعتقد سابقاً). يؤثر القلب تأثيراً كبيراً ومستمراً على الدماغ بطرق مختلفة كما أوضحت الفصول السابقة من هذا الكتاب. هناك حوار دائم بينهما (على مدار الأربع وعشرين ساعة) أو اتصال ثنائي الاتجاه يحدث بين قلوبنا وأدمغتنا وهذا ما لا ندركه. علاوة على ذلك، يمكن اعتبار القلب عضو ضمير وعضو إدراك. ومن ناحية أخرى، الدماغ هو وحده عضو الإدراك. وفي المجالات الروحية، تصبح الأدوار التي يلعبها القلب والدماغ أكثر قوة. وللقلب مهمة أكثر أهمية من الدماغ في المجال الروحي بسبب أهمية القلب في خلق نظام قِيَم قائم على العدالة والإنصاف، وهو ما يجعل الإنسان والأمة جديرين باسمهما.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن القرآن لا ينكر وجود الدماغ وأهميته. الدماغ هو في الواقع أكبر نظام لتخزين البيانات في أجسامنا. كل التقدم العلمي المادي الذي نراه اليوم يرجع إلى قوى للدماغ الإعجازية. ولكن بما أن هذا التقدم يحصل مع إنكار عقل القلب، فإنه يخلو من أي قيم روحية أو أخلاقية.

---

[148] Thornton, E. M. (1986). The Freudian Fallacy: Freud and Cocaine. London, Paladin Grafton Books.

والفصل بين القلب والدماغ اليوم هو في الواقع نتيجة فصل الأمور الدينية والدنيوية في المجتمع الغربي ونظامه التعليمي. قال كارل يونغ Carl Jung، عالم النفس الشهير، ذات مرة: "يمكن للعلم أن يغير طبيعة البلوتونيوم لكنه لا يستطيع أن يغير فطرة الشر في قلب الإنسان." لا يمكن تغيير فطرة الشر في قلب الإنسان إلا بالدين. كما يقول الدكتور محمد إقبال في روائعه الشعرية "بالي جبريل":

"موت القلوب في سيادة الآلات،
تقتل الرحمة والحب بالمحركات."

كريستيان بارنارد Christian Barnard، دكتوراه في الطب، الجراح الأمريكي الذي برع في عمليات زراعة القلب، أصاب حين قال: يجب أن نتخلى عن فكرة القلب الاصطناعي، لأننا وجدنا أن هذا العضو أكثر بكثير من مجرد مضخة. قد يكون القلب الاصطناعي قادراً تماماً على ضخ الدم، لكنه لن يقدر على المشاركة في اتصال ثنائي الاتجاه مع الدماغ ولن يستطيع التأثير على كل عضو في جسمنا بإيقاعه المستمر. القلب الاصطناعي لن يشعر أبدا بالحزن أو السعادة، ذانك الشعوران الجميلان اللذان مُنحا للبشر. القلب الاصطناعي لا يستطيع أبداً أن يحمد خالق السماوات والأرض.

إن الغرض من البحث الوارد في هذا الكتاب هو التأكيد على أهمية تنقية القلب من خلال وصف بعض معجزات القلب العلمية. إذ أن أهمية تنقية القلب أصبحت أمراً من تعاليم الإسلام المنسية في هذا العصر. والسبب في إهمال المسلمين لعلم "التزكية" و "الإحسان" يرجع إلى الاهتمام المفرط بالدماغ مقابل اهتمام قليل جداً بالقلب. ولكي نشعر بالكمال، يجب أن ندرك ونتقبل أهمية حكمة القلب وعقل الدماغ معاً. فبدون إدراك ذكاء قلبنا، لن يكون لدينا سوى نظرة محدودة عن العالم. عندما تعمل موجات القلب والدماغ بالتزامن، تصبح أفكارنا أكثر تركيزاً وعقلانية. نحن بحاجة إلى انتظام قلوبنا وأدمغتنا لأن ذلك هو التوازن بين الباطن والظاهر، وهو أمر نفتقر إليه كثيراً في عصر الدجال الذي يقال إن له عين واحدة وفقا للحديث النبوي. وعلينا أن نتذكر دائما حديث النبي محمد ﷺ:

"أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ **الْقَلْبُ**".

متفق عليه

"يجب أن نتخلى عن فكرة القلب الاصطناعي لأننا اكتشفنا أن هذا العضو (القلب) أكثر بكثير من مجرد مضخة."

الدكتور كريستيان برنارد Christian Barnard، دكتوراه في الطب، رائد عمليات زراعة القلب

أعلن رودولف شتاينر Rudolf Steiner، الفيلسوف الألماني والخبير التربوي، أن "أعظم اكتشاف في علم القرن العشرين هو أن القلب ليس مجرد مضخة بل أكثر من ذلك بكثير، وأن التحدي الأكبر في العصور المقبلة للبشرية سيكون، في الواقع، السماح للقلب بتعليمنا التفكير بطريقة جديدة".